مقالٌ في الإنسان

دراسة قرآنيّة

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
"بنت الشاطئ"
أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس
وأستاذ الدراسات العليا بجامعة القرويين ، المغرب

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى « أمين الخولى » الإنسان . . .

صحبته فى رحلة الحياة فتجلت لى فيه وبه ، آية الإنسان بكل عظمته وشموخه وكبريائه، وجبروت عقله ومرهف حسه وعزة ضميره .

ثم مضى . . .

فعرفت منه وفيه، مأساة الإنسان ، بكل هوانه وضعف حيلته وقصور طاقته .

وفيما بين حياته وموته ، أرهف إحساسى بقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى .

عائشة

مصر الجديدة
مارس : ١٩٦٩
المحرم : ١٣٨٩

فى الأصيل الفاجع ، لليوم التاسع من مارس عام ١٩٦٦ ، رحل من كان يعطى وجودى كله قيمة ومعنى . . .

وفى شهر أغسطس من عام المأساة هربت من ضجيج العاصمة إلى أرض مولدى على شاطئ النيل بدمياط ، ألتمس عزلة أخلو فيها إلى بقايا نفسى ، وأحاول أن أستجمع أشلاءها المبعثرة ، لعلى أستبين هنا ، من حيث بدأت أخطو على درب الوجود ، فيم كانت هذه الرحلة الطويلة على الجسر المعلق ما بين الحياة والموت ، لا يدرى فيها الإنسان موضع قدمه فى الخطوة التالية ؟

وفيم كانت تلك المجاهدة الصعبة من أجل اكتشاف سر الذات ، إذا كان مكتوباً علىّ ، أن أفقدها فى لحظة مروعة تسلمنى إلى التبدد والضياع ؟

بل فيم كانت تلك التجربة الفذة ، لبلوغ أقصى ما تطيق الإنسانية من تحقيق وجودها الأمثل ، ومقدورٌ علينا أن نواجه المصير المحتوم الذى يطوى كل ما كان ، فكأنه حلم واهم أو رؤيا منام ، وإذا بالحياة التى خلْناها حقيقة رائعة تمسى ما بين غمضة عين وانتباهتها ، أسطورة أشبه بخيال الظل ، وقصة تروى فى كلمات ؟ .

* * *

وعكفت فى عزلتى على القرآن الكريم ، وليس معى هنا زاد غيره ، أستقرئ ما فيه من آيات عن هذا الإنسان ، بكل قوته وضعفه وهوانه ، وكل غروره وكبريائه ، وأتتبع مشاهد رحلته من عالم المجهول إلى عالم الغيب . . .

إنها رحلتنا جميعاً !

لا يملك أى إنسان منا أن يحيد عن المصير الذى تقودنا إليه ، مهما يمتد به العمر ويتراخ الأجل .

كما لم يملك ، فى لحظة مولده ، أن يتخلف عن الخروج إلى الدنيا ، ليبدأ هذه الرحلة . . .

وفيما بين البداية والنهاية ،

يأخذ كل إنسان حظه المقدور من الرحلة ،

ونكدح جميعاً بكل قوانا فى مواصلة السير ،

كادحين فى الوقت نفسه إلى مصيرنا ، من حيث ندرى ولا ندرى !

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » .

هذا الإنسان

« اقرأ باسم ربك الذى خلق *
خلق الإنسان من علق * اقرأ
وربك الأكرم * الذى علم بالقلم *
علم الإنسان ما لم يعلم * كلا إن
الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى *
إن إلى ربك الرجعى »

[سورة العلق]

الإنسان ، والإنس ، والبشر

ولا أكاد أبدأ فى تدبر الآيات القرآنية عن هذا الإنسان ، حتى يأخذنى من روعة بيانه المعجز وأسرار دلالاته الباهرة ، ما يجعلنى أمهد بها لما قصدت إليه من محاولة اجتلاء النظرة القرآنية إلى الإنسان ، فى رحلته من المبتدأ إلى المصير .

وأول ما لفتنى من أمر الإنسان فى كتابنا الأكبر ، أنه يأتى فيه بدلالة خاصة تميزه عن ألفاظ أخرى يغلب على الظن أنها مرادفة له : كالبشر ، أو الناس ، أو الإنس .

وكثيراً ما تجرى معاجمنا وكتب مفسرينا على القول بهذا الترادف .

مع أن الحس اللغوى الأصيل للعربية يرفضه ، والبيان القرآنى هو الذى يجلو هذا الحس المرهف فى ذروة نقائه وعز أصالته .

فاستقراء مواضع ورود « بشر» فى القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هى هذه الآدمية المادية التى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق . وفيها يلتقى بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التى هى أتم المشابهة .

وبهذه الدلالة ، ورد لفظ البشر ، اسمَ جنس ، فى خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعاً فى بشرية الرسل والأنبياء . مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، بينهم وبين الكفار فى ثلاثة عشر موضعاً ، إما على لسان الكفار الذين جحدوا نبوة المرسلين لأنهم بشر مثلهم ، وإما فى سياق الأمر الإلهى للرسل، بالاعتراف بهذه البشرية وتقريرها :

« ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهيةً قلوبُهم ، وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم ويسوون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا

أضغاثُ أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسِل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلَك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

[الأنبياء : ٢ — ٨]

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلِكم قومِ نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا اللهُ ، جاءتهم رسلُهم بالبينات فردّوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلُهم أفى الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلُنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبُد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إنْ نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمُنُّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

[إبراهيم : ٩ — ١١]

« ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذابَ يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيَت عليكم أنُلزِمُكموها وأنتم لها كارهون . . . » .

« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقول إنى ملَك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، اللهُ أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لَمِن الظالمين» .

[هود : ٢٥ — ٣١]

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا » . .

[الكهف : ١١٠]

وانظر معها آيات : المؤمنون ٢٤ ، ٣٣ ، الشعراء ١٥٤ ، يس ١٥ ، فصلت ٦ .

وقد تأتى الآيات فى تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعًا ، لكن السياق فيها شاهد على هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصًا :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفجُر لنا من الأرض ينبوعًا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتُفجِّرَ الأنهار خلالها تفجيراً . أو تُسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسفًا أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنزِّلَ علينا كتابًا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

[الإسراء : ٩٠ – ٩٣]

ومعها آيات : الأنبياء ٢٤ ، الفرقان ٢٠ ، الشورى ٢١ .

* * *

وليس بهذا المفهوم المادى لآدمية البشرية ، يستعمل القرآن ألفاظ الناس أو الإنس أو الإنسان ، بل إن لكل لفظ منها ملحظًا خاصًا فى الدلالة يميزه عن سواه :

فلفظ الناس ، يأتى فى النص القرآنى نحو مائتين وأربعين مرة ، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية ، أو هذا النوع من الكائنات ، فى عمومه المطلق :

«يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

[الحجرات : ١٣]

أما الإنس والإنسان ، فيجمع بينهما ملحظ مشترك من الأصل اللغوى لمادة « أن س » فى دلالتها على نقيض التوحش .

ثم يختص كل من اللفظين فى البيان القرآنى ، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك .

لفظ الإنس :

يأتى دائمًا مع الجن على وجه التقابل ، يطَّرد ذلك ولا يتخلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر « الإنس » وعددها ثمانى عشرة آية :

الأنعام ١١٢ ، ١٢٨ (مرتين) ١٣٠ ، الأعراف ٣٨ ، ١٧٩ . الإسراء ٨٨ ، النمل ١٧ ، فصلت ٢٥ ، ٢٩ ، الأحقاف ١٨ ، الذاريات ٥٦ ، الجن ٥ ، ٦ وكلها آيات مكيات ، ثم الرحمن : ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤ وهى مدنية .

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن فى دلالتها أصلا على الخفاء الذى هو قرين التوحش .

وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لا تنتمى إلينا ولا تحيا حياتنا .

وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا إلا فى تهاويل الظلمة وتصورات الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصلية على الخفاء ، وبمقابلته للإنس — لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مدرَكة ، وراء حدود عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه نحن الإنس ، ولا يخضع للسنن المعروفة التى توجه حياتنا وتحكمها .

وبهذا المدلول الرحب ، تنتفى شبهة الخرافة التى تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد فى وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشوف العلمية الحديثة لا تنفى احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش فى عوالم خفية كالكواكب والقمر ، لا نزال نجهلها وإن لم نكفّ عن السعى إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها .

* * *

فماذا عن الإنسان ؟

قلت إن اللفظ يلتقى مع الإنس فى ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش . ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميزه عن الآخر .

فدلالة الإنسية ، هى المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الإنس

دائمًا فى مقابل الجن بما تعنى من توحش وخفاء .

أما « الإنسان » فليس مناط إنسانيته ، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتميًا إلى فصيلة الإنس (الرحمن: ١٤،والحجر : ٢٦) كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر ، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته ، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته فى الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات .

بحيث ينسى فى نشوة زهوه وكبرياء غروره ، أنه المخلوق الضعيف الذى يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب ، على الجسر المفضى حتمًا إلى حفرة من تراب :

« أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى » .

* * *

وأمضى فى تدبر آيات القرآن عن هذا « الإنسان » بوجه خاص، اجتلاء لملامح صورته وخصائص إنسانيته التى يتميز بها عن مجرد كونه فردًا من النوع البشرى أو من الإنس .

وقد ورد لفظ « الإنسان » فى القرآن الكريم ، فى خمسة وستين موضعًا ، نتدبر سياقها جميعًا ، فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية .

ونبدأ بسورة العلق ، أول ما نزل من كتاب الإسلام . وفيها يمكن أن نجتلى الملامح العامة للإنسان ، وقد تكرر ذكره فى هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

إحداها : تلفت إلى آية خلقه من علق .

والثانية : تشير إلى اختصاصه بالعلم .

والثالثة : تنبه إلى ما يتورط فيه من طغيان ، حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه .

« اقرأ باسمِ ربك الذى خلق . خلق الإنسانَ من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علَّم الإنسانَ ما لم يعلم. كلا إن الإنسان َليطغى. أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرُّجْعَى » .

هذه هى السمات المجملة للإنسان ، كما بدت فى السورة الأولى من القرآن . ثم تتابعت الآيات من بعد ذلك تزيدها جلاء وبيانا ، بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفى النوازع .

وقد تكررت الإشارة إلى خلق الإنسان من علق ، أو من نطفة ثم علقة ، فى آيات كثيرة . وليس من شأنى هنا أن أعرض لما يخوض فيه المحدثون من تأويلات علمية لهذه الآيات ، فلست من أصحاب هذا المذهب . وإنما قصارى جهدى أن أتدبر آيات كتابنا الأكبر ، وأصغى إلى إيحاء سياقها .

وآيات خلق الإنسان ، جاءت كلها فى سياق العظة والاعتبار ، لافتة إلى أطوار الجنين البشرى التى يدركها الناس بأيسر ملاحظة وانتباه . ويبدو فى الآيات العمدُ الواضح إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث :

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلق . خُلِقَ من ماء دافق . يخرجُ من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر » .

[الطارق : ٥ — ٨]

« قُتِل الإنسانُ ما أكفرَه . من أىِّ شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدَّره . ثم السبيلَ يسَّره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره » .

[عبس : ١٧—٢٢]

« إنا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورًا » .

[الإنسان : ٢ — ٣]

« أوَ لم ير الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسى خلقَه قال مَن يُحيى العظام وهى رميم . قل يُحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكلِّ خلق عليم » .

[يس : ٧٧ — ٧٩]

« ألم يكُ نطفة من مَنِيٍّ يُمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يُحيِيَ الموتى » .

[القيامة : ٣٧ – ٤٠]

« أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا » .

[الكهف : ٣٧]

وإذا كان الأسلوب العلمى فى التشريح والأحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والإيمان ، والخصومة والابتلاء والغرور . . .

فإن طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين ، تقتضى توجيه كل لفظ وآية إلى مناط الهداية والاعتبار .

ولمثل هذه الغاية ، يحرص كتاب الإسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه فيلفته إلى خلقه من تراب ، أو من طين أو من نطفة ، أو من علقة ثم من نطفة ، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . – ولا شىء من هذا يحتاج الإنسان فيه إلى دراسة علمية ليدركه–كبحًا لجماح غروره كيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر . والإنسان مظنة أن يتمادى به الطغيان والغرور إلى حد الكفر بخالقه ، والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .

[النحل : ٤]

« وخُلق الإنسان ضعيفا » .

[النساء : ٢٨]

« أوَلا يذكرُ الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » .

[مريم : ٦٧]

« يا أيها الإنسانُ ما غرّك بربك الكريم . الذى خلقك فسوّاك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبّك » .

[الانفطار : ٦ – ٨]

ومن شأن الإنسان أن ينسى ربه فى حال النعمة والقوة ، فأما إذا مسّه الضر فإنه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال :

« وإذا مسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائمًا ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسّه ...»

[يونس : ١٢]

« وإذا مسكم الضر فى البحر ضلَّ مَن تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » .

[الإسراء : ٦٧]

وانظر معها آيات : هود ١٠ ، والإسراء ١١ ، ٨٣ ، والزمر ٨ ، ٤٩ ، والشورى ٤٨ .

فذلك هو مزيد تفصيل وبيان لما فى آية الوحى الأولى :

« كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » .

* * *

والإنسان فى القرآن الكريم هو الذى يختص بالعلم :

« علّم الإنسانَ ما لم يعلم » .

[العلق : ٥]

والبيان :

« الرحمن . علَّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » .

[الرحمن : ١ – ٤]

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر ، والتمييز بين الخير والشر . وذلك كله من جوهر إنسانيته . وبها يحمل الأمانة ، ويحتمل تبعات التكليف ، ومسئولية الثواب والعقاب :

« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى » .

[النجم : ٣٩–٤١]

« أيحسب الإنسان أن يُترك سدى »

[القيامة : ٣٦]

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

[الإسراء : ١٣–١٤]

ثم إن الإنسان هو الذى يحتمل الوصية (لقمان ١٤ ، العنكبوت ٨) وهموم المكابدة واقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنسانى وأداء مسئوليته الاجتماعية :

« لقد خلقنا الإنسان فى كبَد . أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . . . »

« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة » .

[البلد : ٤، ٥، ١١-١٢]

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوْا بالصبر » .

[العصر : ١-٣]

كما أنه الذى يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية (الفرقان ٢٩ ، ق ١٦ ، الحشر ١٦ ، الإنسان ٢) .

ويظل الإنسان ما عاش كادحًا لمصيره ، محتملا هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الأجل فيمضى . . .

فما أعجب قصة هذا الإنسان فى رحلته العابرة ما بين الحياة والموت ! .

هل تعدو أن تكون فى مجملها إلا كما وصفها البيان القرآنى :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فلهم أجرٌ غيرُ ممنون » .

[التين : ٤ - ٦]

* * *

فلنتابع التأمل فى هذه القصة ، من المبدإ . . . إلى المنتهى .

قصّة الإنسان

من المبتدأ.. إلى المنتهى

خليفة فى الأرض

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفِك الدماءَ ونحن نسبحُ بحمدِك ونقدسُ لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون » .

[سورة البقرة]

تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبى البشرية .

ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فآدم فى النص القرآنى هو الإنسان الأول الذى بدأ منه طور البشرية . والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « خلقكم أطواراً » كما يلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئًا مذكورا :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً » .

كذلك لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين ، فقد أعفانى أستاذنا العالم « الدكتور محمد كامل حسين » من رد ما قالوه من تأويلات لا يحل أن نلزم القرآن بها وليس فيه نص صريح على كيفية خلق آدم ، والله تعالى لم يقصر الخلقة من تراب أو من طين على آدم وحده ، بل يستوى فى ذلك الناس جميعًا ، خلقهم تعالى من تراب ، أو من طين لازب ، فشهد ذلك على أن مادة الإنسان ترابية ، وهو ما لا نزاع فيه .

وقد أضيفُ إلى ما ذكره أستاذنا فى هذا[1] ، أن القرآن حين يلفت إلى خلق الإنسان من تراب وطين ، فليس من الضرورى أن يكون أحدنا عالمًا بترابية مادة الإنسان لكى يؤمن بالقدرة الخالقة ، وإنما حسبه أن يلتفت إلى الأرض ، ندفن جثث موتانا فى ترابها ، فتتحلل عناصرها ذائبة فى التراب الذى يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقى عناصره . . .

ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليدرك أننا خُلقنا من تراب وإلى التراب نعود ، على المشهود المنظور والواقع الحسى المدرَك . . .

« الذى جعل لكم الأرض مَهداً وسلك لكم فيها سُبُلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النُهَى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

[طه : ٥٣ – ٥٥]

* * *

(١) الدكتور محمد كامل حسين : الجزء الثانى من (متنوعات) : قصة آدم .

ومن بدء الخليقة ، اصطُفِي الإنسانُ الأول للخلافة فى الأرض .

ولست أدرى ما إذا كانت الأديان التى سبقت الإسلام قد نزلت بهذا الاصطفاء وإنما قصارى ما أعلمه ، هو ما جاء فى كتاب الإسلام من إعلان خلافة آدم فى الأرض . فإن يكن هذا الإعلان غيرَ مسبوق إليه فى دين قبله ، فلعل البشرية لم تكن قد بلغت من الرشد المرحلة التى تهيئها لوعى هذه الخلافة ، وإدراك خطر جلالها وتبعات أمانتها . . .

وإن امتد عهدها بها موغلا فى أعماق الزمن السحيق إلى عصر النشأة الأولى .

أو بتعبير أدق ، كان آدم أبو البشرية موعوداً بها من قبل أن يخلق ، فى اللحظة التى آذنت الكونَ باستقبال هذا الطور الجديد من الخلق .

* * *

وما أقدمه هنا ، يبدأ من حيث انتهى « الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين » فى خطوته الرائدة على الطريق . ولا أرجع فى شىء مما أكتب إلى غير القرآن الكريم ، بعد استيعابٍ لما فى كتب التفسير ، وكثير منه دخيل على جوهر الفكرة القرآنية الأصيلة ، من مدسوسات الإسرائيليات والمقحمات الأسطورية التى شابت فهمنا لكتاب ديننا ، وتركت أثرها الباقى فى الفكر الإسلامى.

* * *

فى مستهل العهد المدنى ، نزلت سورة البقرة ، وفيها ذكر لإعلان خلافة آدم فى الأرض :

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماءَ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون » .

والآية ، ومعها آيات خلق آدم ، صريحة فى أنه مسبوق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التى لا ندرى كنهها ولا يأذن لنا العلم فى أن نخوض فيها ، وهى من الميتافيزيقية التى أخرجها العلم الحديث من مجاله .

وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها ، بأكثر مما تلاه علينا كتاب ديننا .

ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على خلق آدم ، وقد عاشت فى عالمها الذى لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة لنواميس غير التى يخضع لها نوعنا الآدمى، تُسيِّرها الإرادة العليا على وجه التسخير ، فتأتمر بها فى خضوع وإذعان، دون أن تُبتلى بحرية إرادة واختيار، ودون أن تهيئها طبيعتها لعلم أو خُلق كَسْبى . بل دون أن تدرك ضرورة ما ، لوجود طور جديد من المخلوقات ، ليس له مثل خضوعها وتواضعها وطهرها ،وهى المذعنة للتسخير المطلق،والكونُ يسير — قبل هذا الآدمى — فى سلام، والملائكة فيه رسل ربهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

* * *

ولنا أن نفترض دون تعسف ، أن المرحلة التى سبقت وجود آدم مباشرة ، كانت مؤذنة بتحول وشيك ، ظهرت بادرته الأولى حين تلقت الملائكة النبأ الإلهى المؤذن بخلق آدم خليفة فى الأرض،فبدأت تفكر فى العلل والأسباب، على غير المعهود فى طبيعتها من الإذعان والتسليم وقيامها بأمر الله دون تفكير أو مراجعة !

ويؤنسنا فى هذا الافتراض ، أن القرآن على كثرة ما تحدث عن الملائكة ، كان موقفها فيه من خلافة آدم فى الأرض، هو الموقف الوحيد الذى مارست فيه الملائكة حق السؤال والجدل ! وفيما عدا هذا الموقف ، يأتى حديث القرآن فيصرفنا عمداً عن البحث فى كنهها وجوهرها ، ويذكرها رسلاً مسخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، ويسجدون لله وهم لا يستكبرون .

حتى إذا قال لهم سبحانه: « إنى جاعل فى الأرض خليفة »

استباحوا أن يسألوه تعالى : « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ؟

وقد عادت الملائكة ، بعد كلمات من الله ، إلى مألوف وضعها من الطاعة والامتثال والإذعان ، لم يشذ عنها إلا إبليس فباء باللعنة :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

ويسوقنا هذا الافتراض ، إلى تصور المرحلة السابقة مباشرة على الطور الآدمى ،

شبيهة بمراحل الإرهاص والتهيؤ التى تعرفها الحياة ويثبتها العلم البيولوجى والتاريخ الحضارى . إذ يلمح دائمًا قبيل كل طور أو عصر جديد ، بوادر التحول المرتقب ، وفيها تلوح على الطور الأسبق بعض سمات وملامح من الطور الجديد .

ففى هذا الموقف الذى وقفته الملائكة من قول الله: « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ما يشبه أن يكون بادرة مؤذنة بجديد ، إذ أن الإنسان وحده هو الذى انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدل ومسئولية الاختيار ، وما عهدنا الملائكة فيما تلا علينا القرآن من أمرها . تتجه إلى مثل ذلك السلوك المجافى لخلقتها وطبيعتها ، وهو السلوك الذى لا نلبث أن نراه خاصية مميزة للطور الآدمى الجديد .

ولقد كانت محنة إبليس ، أثراً لوقع الحدث الجديد على الطور السابق لآدم والذى لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير . . .

كما كان إصراره على المعصية . إيذانًا بالصراع المحتوم بين الخير والشر ، وبيانًا للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة والتسخير التام ، وبين ما ينذر به الاختيار من إمعان فى التمرد ، وانحراف إلى الشر والضلال .

والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبرية تسليم وطاعة تسخير ؛ ولا هى محض شر وشهوة تمرد وإصرار على الضلال . . .

وإنما هى تحقيق للذات ، عن تمييز ووعى وإرادة . . .

هى تجربة الابتلاء ، يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى ، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفس اللوامة . فيندم ويتوب . . .

ويمضى ليمارس خلافته فى الأرض ، فلا تكون حياته كلها ، من بدء خلقه إلى آخر وجوده ،إلا معركة متصلة بين الخير والشر يحتمل فيها تبعة عمله ومسئولية اختياره .

وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار .

وكل خير من الإنسان ، مَتَجِدٌ لا تحظى به الملائكة المسخرة ... وأى شر تنسخه التوبة ويكفر عنه حساب النفس اللوامة . . .

أو هذه هى الآدمية السوية التى استحقت الخلافة فى الأرض .

وحين يشذ بعض أفرادها عن هذه الآدمية السوية ، فيقترف الشر شهوة ومتعة ، دون أن يردعه ضمير أو يؤرقه قلق ، فإن هذا الشذوذ يخرج بمثل ذلك الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطاناً مريداً ، من صنف إبليس ، أصل الشر .

من هنا لم يكن فيما توقعت الملائكة لآدم ، من إفساد فى الإرض وسفك الدماء ، ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التى تسبح بحمد الله وتقدس له .

فالابتلاء يقتضى أن تكون أمام آدم شرور تغويه لكى تمتحن طاقته وتصهر معدنه .

وأمانة الإنسان تعنى أن يواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر ، ليكون خيره له وشره عليه .

وهو ما خلق ليعيش فى أفق الملائكة التى تسبح بحمد الخالق وتقدس له ، وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ويمارس خلافته فيها ، والخير المحض لا يبرر الخلافة ، إن كان جبرياً بغير إرادة واختيار .

اسجدوا لآدم

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا
إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »

[سورة البقرة]

تمضى الآيات فى بيان موقف الملائكة من خلافة آدم فى الأرض مع ابتلائه بالمفاسد وسفك الدماء ، والاشتغال عن تسبيح الله والتقديس له :

« وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلاَ منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم منى هدًى فمَن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

[البقرة : ٣١ — ٣٩]

ويذهب عدد من المفسرين إلى تأويل قوله تعالى على لسان الملائكة : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بنفى دعوى الملائكة عن هذا الإفساد فى الأرض وسفك الدماء !

وسياق الآيات بعدها ، فضلا عن نصها ، لا يعين على هذا مثل التأويل بحال ما ، إذ ما لبث آدم أن عصى ربه ، وتعرض هو وزوجه لغواية الشيطان فأزلهما عن الجنة .

وإنما كان وجه الإيثار المبرر للخلافة فى الأرض ، هو العلم . وبه كان الرد على الملائكة فيما عجبت له من استخلاف آدم فى الأرض .

ولا بد هنا من استطراد يسير ، أشير به إلى ما ذاع فى البيئة الإسلامية وشاع ، من خلق حواء من ضلع آدم . وليس فى القرآن كله ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها خلقت من ضلعه أو غير ضلعه ، وإنما الذى فيه أنها زوجه . خلقهما الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

[النساء : ١]

وقد أكد كتاب الإسلام هذه الخلقة من نفس واحدة فى آيات أخرى بينات ، من سور الأنعام والأعراف والزمر .

وهم يذكرون فى حكاية الضلع هذه ، حديثًا مرويًّا عن الرسول صلى الله عليه وسلم يشبه فيه المرأة بضلع أعوج ، إن حاولتَ تقويمه بالشدة والعنف كسرته . وقد فهموا هذا الحديث فهمًا حرفيًّا ، مع أن الضلع فيه ، من التعبير المجازى الذى نعرفه فى أسلوب البيان العربى . وإذا صح الحديث عن الرسول فليس القصد منه تحديد أصل الخلقة ، وإنما هى وصية من نبى الإسلام بالترفق بالمرأة والتحذير من أخذها بالشدة ، مثله مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « رفقًا بالقوارير » .

فهل خلقت النساء من قوارير ؟

وأشير كذلك إلى القصة الذائعة التى تستهل فيها حواء الأولى حياتها بالغواية والإغراء ، وفيها تبدو الأنثى الأولى ، أم الآدمية ، أداة طيعة لإبليس على الشر ، ووسيلته إلى التسلط على آدم وإغرائه بعصيان خالقه والأكل من الشجرة المحرمة .

والحق أن ليس فى كتاب الإسلام إشارة ما إلى أن إبليس بدأ بإغواء حواء فأغرت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة فأخرجته من جنته . وإنما الذى فى القرآن الكريم أن آدم هو الذى نسى وغوى ، وأن إبليس تعرض له مباشرة بالوسوسة والإغواء دون أن يسلط عليه حواء . ودور زوج آدم فى القصة ، فى كتاب الإسلام ، مقصور على مشاركتها زوجها فى الأكل من الشجرة المحرمة ، فأزلهما الشيطان عن الجنة :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق

الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .
[طه : ١١٥ – ١٢٢]

* * *

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنا فيه من قصة الإنسان فى المبتدأ ، كما تلاها علينا كتابنا الأكبر ، حين آذن الله الملائكة بخلق آدم وجعله خليفة فى الأرض . ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم .

سبحانه ! جعل آدم خليفة فى الأرض ، وأكرمه فأمر الملائكة أن يسجدوا له وإنه تعالى ليعلم نزوع الآدمية إلى الفساد وتعرضها لمحنة الغواية ، وما يجوز عليها من أعراض الضعف والخطأ والنسيان . فكأنما هو ابتلاء لها بالشر والخير فتنة .

واختلف اللغويون والمفسرون فى تأويل هذه الأسماء التى علمها الله آدم . فقال « الراغب » فى "المفردات" إنها الحروف والأفعال والأسماء . وهو قريب ممن ذهبوا إلى أن الأسماء هى اللغات ، واستدلوا بالآية على أن اللغات توقيفية ، تلقاها آدم من ربه . لا يقتصرون فيها على لغة واحدة كان آدم يتحدث بها ، وإنما هى كل اللغات التى جرى بها لسان بنى آدم . القديم منها والحديث !

ونقل الإمام الطبرى فى تفسيره للآية ، مرويات شتى فى تأويل الأسماء :

فهى أسماء الملائكة عند بعض المفسرين .

وعم بها آخرون : اسم كل شىء ، كالبعير والبقرة والشاة والقصعة . . .

وأضاف بعضهم : والجن والوحش !

وذهب نفر منهم إلى أنها أسماء ذرية آدم !

ثم قال الطبرى :

« وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة . قولُ من قال إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق ، وذلك أن الله قال : ثم عرضهم على الملائكة . يعنى أسماء أعيان المسمين بالأسماء . ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم (هم) إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة ، وأما

أسماء البهائم وسائر الخلق سوى مَن وصفنا ، فإنها تكنى بالهاء والألف أو بالهاء والنون » — يعنى : عرضها ، عرضهن .

ولم يفت الطبرى أن القرآن نفسه ، أضمر عن غير العاقل بضمير العاقل فى مثل قوله تعالى :

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » ، فكنى عنها بـ « هم » وهى أصناف مختلفة ، فيها الآدمى وغيره .

لكن الطبرى استطرد فقال :

« وذلك وإن كان جائزاً فإن الغالب المستفيض فى كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية الأجناس المختلفة بـ : ها ، وهن ، فلذلك قلت : أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التى علمها آدم ، أسماء أعيان بنى آدم وأسماء الملائكة . وقرأ ابن مسعود : ثم عرضهن . وقرأ أبىّ : ثم عرضها .

« وعلى قراءتنا ورسم مصحفنا ، أن الدلالة على بنى آدم والملائكة أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غير فاسد أن يكون دالا على جميع أصناف الأمم »[١] .

والذى استبعده الطبرى ، هو ما اختاره « الزمخشرى » ، قال :

« أراد الأجناس التى خلقها . وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وكذا ، وعلمه أحوالها أو ما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية .

« وإنما استنبأهم ، وقد علم عجزهم عن الإنباء ، على سبيل التبكيت : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء . . . إرادة للرد عليهم وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ، ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا . فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح فى اختلافهم »[٢] .

---

(١) تفسير الطبرى : سورة البقرة .

(٢) الكشاف : جـ ١ سورة البقرة .

ولا نرى وجهاً لكل هذه التأويلات، أو إقحام قضية التوقيف فى اللغات التى نعرف موقف علم اللغة منها . والقرآن الكريم قد أشار فى أكثر من موضع، إلى أسماء ما أنزل الله بها من سلطان :

« قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رِجْس وغضب، أتجادلوننى فى أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

[الأعراف : ٧١]

« ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

[يوسف : ٤٠]

فشهد ذلك بأن من الأسماء التى يعرفها الآدميون ، ما لم يتلق آدم من ربه !

وإنما حسبنا ما تلفت إليه الآية ، من اختصاص آدم بعلم الأسماء كلها التى لم يكن للملائكة علم بها ، فى سياق الإقناع بإيثاره بالخلافة فى الأرض وأهليته لها .

والأسماء قد تطلق على أعيان الأشخاص ، كما قد تطلق ويعنى بها الدلالة على المسميات علامة مميزة لكل منها . والعربية تستعمل الاسم والسمة بمعنى ، وتقول استمى الصائد ، إذا لبس اللباس الدالّ على الصيد ، وتوسمت فيه الشىء ، لمحت فيه علامته وسمته .

ولا معنى لأن نتأول الأسماء هنا بكل اللغات . وإنما الأمر فيما نقدر ، هو ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده فى قوله :

« والعلم إنما هو إدراك المعلومات أنفسها ، والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح فهى تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف » [1] .

* * *

(١) تفسير الذكر الحكيم : ١/٢٦٢ ط المنار .

ويبدو أن الشيخ محمد عبده ، يميل إلى حمل آية : « وعلم آدم الأسماء كلها » إلى«ما تهيأ فى فطرة هذا الخليفة الإنسانى واستعداده ، من علم ما لم يعلموا ، فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة فى الأرض . وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه . وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته » .

وهو تأويل مقبول ، لا يمنعه مافى الآية من النص الصريح على أن آدم فى بدء حياته ، علم بتوفيق الله ما استطاع به أن ينبىٔ عن أسماء لم يُعلمها الله الملائكة .

وقد عاد الشيخ محمد عبده . فقال شبه مستدرك . فيما نقل عنه صاحب المنار :

« ثم إن الذى يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج . ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

« ولكن المتبادر من تعليم آدم الأسماء أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه . بالفعل أو بالقوة . . .

« ولذلك قال شيخنا : علم الله آدم كل شىء . ولا فرق بين أن يكون له هذا العلم فى آن واحد أو فى آنات متعددة ، والله قادر على كل شىء . ثم إن هذه القوة العلمية عامة فى النوع الآدمى كله . ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم ، فيكفى فى ثبوت هذه القوة لهم ، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال . . ومن ذلك عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودِعتْه فطرتنا . فعلينا أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خُلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا : ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكَّرون » .

* * *

والزمخشرى ، يوجه الآية فى خلافة آدم فى الأرض ، وفى علمه الأسماء . إلى عموم الجنس الآدمى ، إذ تمضى عبارته فى (الكشاف) حديثًا عن الجمع ، فى استخلاف « مفسدين سفاكين للدماء . إرادة للرد على الملائكة ، وأن فيمن

يستخلفه من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا » .

ثم يقرر ذلك صراحة حيث يقول :

« واستغنى بذكر آدم عن ذكر بنيه ، كما يُستغنى بذكر القبيلة فى قولك : مضر وهشام » .

وذلك التعميم . هو ما يفهم من عبارة الشيخ محمد عبده :

« فيصح أن يكون معنى الخلافة عامًّا فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات » . . .

ولا يفوتنا الالتفات إلى ما فى قول الملائكة : «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتَنا» من نفى كل علم كسبى عن جنس الملائكة ، على حين يتميز الإنسان دون الكائنات الأخرى . بميزة القدرة على تحصيل العلم الكسبى واستعداده لكسب المعارف الوضعية . وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية :

« . . . وكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية ، فإن له استعداداً محدوداً وعلماً إلهاميًّا محدوداً وعملا محدوداً . . .

« وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وخلقه جاهلا . ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر وموضع لعجب المتعجب . لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ، ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء ، ويُعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له بها السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها كما تشاء تلك القوة الغريبة التى يسمونها العقل ولا يعقلون سرها .

«فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العقل . نعم إن هذا العلم الواسع لا يُعطاه فرد من أفراد الإنسان ، ولا مجموع النوع الإنسانى دفعة واحدة فيشابه علم الله تعالى . . . فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهى إلا قليلا . وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهى » [1] .

* * *

---

(١) تفسير الذكر الحكيم : ١/٢٥٢ .

وقد تكرر الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم ، فى آيات : البقرة ٣٤، الأعراف ١١ ، الحجر ٢٩ ، الإسراء ٦١ ، الكهف ٥٠ ، طه ١١٦ ، ص ٧٢ .

يلفتنا منها بوجه خاص ، آية الأعراف :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » —١١ .

بما تبيح لنا من الاطمئنان إلى أن نعتبر أبوة آدم للإنسان هى موضع هذا التكريم . إذ أن الخطاب فى صدر الآية عام لبنى الإنسان . وهذا العموم مستفاد من ضمير الجماعة للمخاطبين : «خلقناكم ثم صورناكم»

والسجود إذا كان لغير الله ، فليس معناه العبادة بالمصطلح الدينى لمعنى السجود ، وإنما هو الخضوع ، على أصل الاستعمال اللغوى للمادة .

وبهذا المعنى تفسر آيات السجود لآدم ، أو للنوع الإنسانى فيه .

ويفرق « الراغب الأصفهانى»[1] بين ضربين من السجود لله: سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب. وسجود بتسخير. وهو عام فى المخلوقات:

« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون » .

[النحل : ٤٩]

وانظر آيتى الرعد ١٥ ، والحج ١٨ .

وهذا السجود الاختيارى ، مظهر من مظاهر الإرادة الحرة التى يحتمل الإنسان مسئوليتها فيما يحتمل من أمانة إنسانيته .

وقبل أن نتابع القصة ، نقف هنا لنستخلص من آيات البقرة فى خلافة آدم فى الأرض وأمر الملائكة بالسجود له ، ما تلفت إليه من أمرين :

---

(١) مفردات القرآن : مادة سجد .

أولهما : أن تكريم الإنسان الأول ، الذى تمثل فى الأمر الإلهى بأن يسجد الملائكة له ، كان التبرير الظاهر له فى سياق الآية، هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة الذى لا مجال فيه لميزة الكسب :

« سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »

والثانى : أن الخلافة فى الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمى من أمانة إنسانيته ومسئولية عمله وكسبه ، وتبعة الابتلاء التى أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق.

ويأتى الحديث عن هذه الأمانة الصعبة ، بعد أن نتدبر ما يتصل بعلم الإنسان من اختصاص بالبيان .

خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ

« الرحمنُ . علّم القرآن . خلق الإنسان .
علّمه البيان »

[سورة الرحمن]

الآيات مدنية ، وفيها لفت إلى اختصاص الإنسان بالبيان مع ربط سياقه بالقرآن ، معجزة النبي العربى عليه الصلاة والسلام .

وتأتى صيغة « بيان » فى القرآن ثلاث مرات ، كلها فى سياق يتصل بهذا القرآن الذى نزل على نبى أمى من العرب ، فأعياهم أن يأتوا بسورة من مثله .

والآيات الثلاث هى :

آية القيامة ١٩ : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .

وآية آل عمران ١٣٨ : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وآية الرحمن ٤ : « علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » .

كما جاء المصدر بصيغة تبيان ، فى آية النحل ، مفعولا لأجل تنزيل الكتاب :

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانـًا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ٨٩ .

وكل استعمالات المادة (ب ى ن) بمختلف صيغها ، تدل دلالة صريحة على الوضوح والإبانة الكاشفة . ويأتى ذكر القرآن « كتابـًا مبينـًا » كما توصف آياته تعالى بالبينات . والبينة : الحجة الواضحة الملزمة .

ومن هنا يختلف البيان عن مجرد النطق الصوتى ، وقد جاء المنطق مضافـًا إلى الطير فى آية النمل :

« وورِث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ عُلمنا منطقَ الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضلُ المبين » ١٦ .

* * *

واختلف اللغويون والمفسرون فى وجه استعمال المنطق للطير : و « ابن سيده » يستشهد بهذه الآية على أن النطق قد يستعمل لغير الإنسان ، على حين يقول « الراغب الأصفهانى » فى مفردات القرآن : «النطق . . . الأصوات المقطعة التى يظهرها اللسان وتعيها الآذان ، ولا يقال للحيوان ناطق إلا مقيداً أو على التشبيه . كقول " جرير " .

« لقد نطق اليومَ الحمامُ لتطربا » »

والواقع أن العربية فى توسعها المجازى ، تسيغ أن نقول : نطق الطير ، ونطق الحيوان ، ونطق الصخر والجماد . بل قد نقول فى اللوحة الفنية لرسام بارع : صورة ناطقة . كما نقول فى التمثال المنحوت بمهارة من معدن أو حجر : تمثال ناطق .

لكن العربية لا تسيغ إسناد البيان ، بمفهومه الخاص ، إلى حيوان أعجم أو جماد ، ومن هنا كان اختيار لفظ « البيان » للمصطلح البلاغى من فن القول .

* * *

واختصاص الإنسان بالبيان فى سورة الرحمن ، يرتبط بهذه المعجزة البيانية للنبى العربى . وبها ساير الدين تطور البشرية ، فكانت معجزة « موسى » مناسبة لعصر السحر ، وكانت معجزة « المسيح » الخارقة للعادة ، هى دليل نبوته فى عصر الأبطال الذى اقترنت فيه البطولة بالخوارق .

وبزغ عصر الإنسان ، فكانت معجزة خاتم الأنبياء ، هذا البيان الذى يخاطب الحس المرهف والضمير الحى والبصيرة الواعية ، ويرقى بالبشرية إلى المستوى الذى تستطيع فيه أن تعرّف بكتاب مبين ، معجزة نبىٍّ أمى من البشر ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

* * *

ويأخذ البيان من حيث وضّعه القرآن ، مكانته الأصيلة فى إنسانية الإنسان . وقد جهد الفلاسفة والمفكرون فى الوصول إلى خصوصيه تميز النوع الإنسانى عن عموم جنسه فى الحيوان ، فكان النطق هو هذه الخصوصية المميزة لنوعنا ، حين يستوى مع عامة الحيوان فيما تقوم به الحيوانية من طعام وشراب وتناسل ، وما تحتاج إليه من ضرورات البقاء المادى .

ومن ثم قالوا فى تعريف الإنسان إنه « حيوان ناطق » واطمأن المناطقة إلى أنه تعريف جامع لكل أفراد الإنسان ، مانع لغيره من الحيوان الأعجم .

وإذ يعد القرآنُ البيانَ خصوصية مميزة للإنسان عن عامة الجنس الحيوانى ،

فإنه يلفت إلى أن مجرد النطق الصوتى ليس مناط إنسانيته الناطقة . ونستأنس هنا بالآيات الست التى ورد فيها لفظ : « البكم » حيث يتعين فيها جميعاً أن قيمة النطق ، أو السمع والبصر ، ليست فى آلية هذه الأجهزة العضوية . .

فالحيوان فى عمومه المطلق ، مزود كذلك بألسن وآذان وعيون ، وإنما مناطها فى أن يكون النطق الإنسانى بياناً ، وسمعه وعياً وإدراكاً ، وبصره تمييزاً وهدى ، وإلا مسخت إنسانية الإنسان فهبط إلى دونية الدواب العجماء :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

[الأعراف : ١٧٩]

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء ، صم بكم عُمى فهم لا يعقلون » .

[البقرة : ١٧١]

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات » .

[الأنعام : ٣٩]

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

[الأنفال : ٢٢]

ومعها آيات : البقرة ١٨ ، النحل ٧٦ ، الإسراء ٩٧ .

* * *

وإذا كان البيان فى عمومه خاصاً بالإنسان الرشيد المميز الناطق المبين ، فإن ارتباطه بمعجزة النبى العربى يتجه به إلى دلالة أخص بالعرب الذين اصطفى الله منهم نبى الإسلام ، وكانوا أول من تلقى آيات معجزته التى استُهلت بآية القراءة والعلم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسانَ ما لم يعلم » .

والعرب أهل بيان . . .

وكان حتماً أن يؤمنوا برسالة نبيهم المصطفى قبل أن يؤمن بها غيرهم من الأمم وليست العربية لغتهم .

لأن العرب بإيمانهم قادرون على أن يحملوا لواء الإسلام وينشروه فى الآفاق .

وهم الذين يملكون قبل سواهم . أن يدركوا إعجاز البيان القرآنى .

والقرآن يخاطب العرب بلسانهم . وقد أخذهم ببيانه المعجز فأسلم منهم من أسلموا بمجرد أن سمعوا آيات منه ، عن يقين بأنها تجاوز طاقة البشر .

وكفر به كافرون عن عناد وضلال ، فما استطاعوا أن يقولوا فيه إلا أنه قول ساحر ، أو شاعر ، أو كاهن .

فكان هذا اعترافاً صريحاً بأن هذا البيان القرآنى يملك قلوبهم ويسيطر على وجدانهم سيطرة لا عهد لهم بمثلها إلا فى سلطان الشعر وأخذة السحر ونفوذ الكهان .

* * *

ونقول مع ذلك ، إن سلطان البيان لا تنفرد به لغة دون أخرى . وإنما هو عام فى اللغات الإنسانية .

وإذن فليس اختصاص الإنسان بالبيان محدوداً باقتداره عليه دون الحيوان الأعجم ، بل يتسع مفهوم ذلك الاختصاص . فيشمل انفعال الإنسان بالبيان وتذوقه إياه ، وإدراكه لوقعه المسيطر على منافذ التأثير والوجدان .

وهو أداته فى التعبير المبين . ووسيلته إلى ممارسة قدرته على التفكير وأهليته للتعلم التى استحق بها أن يكون خليفة فى الأرض .

أمانة الإنسان

« إنا عرضْنا الأمانةَ على السموات والأرضِ والجبال
فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشفَقْن منها وحمَلها الإنسانُ
إنه كان ظلومًا جهولا » .

[سورة الأحزاب]

حمل الإنسان للأمانة ، من أخص ما يميز دلالة الإنسانية فى البيان القرآنى عن الإنسية أو البشرية .

بصريح إسناده إلى « الإنسان » دون الناس ، أو الإنس أو البشر .

وقد ورد لفظ « أمانة » بصيغة المفرد ، فى آية كتابة الدين بسورة البقرة :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » ٢٨٣ .

وجاءت « أمانات» جمعًا ، أربع مرات . فيما لله والرسول أو للناس من حقوق :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

[النساء : ٥٨]

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

[الأنفال · ٢٨]

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

[المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٢٢]

وانفردت أمانة الإنسان فى آية الأحزاب . بمجيئها بصيغة المفرد مع التعريف بأل ، على وجه الاختصاص .

فما هذه الأمانة الصعبة التى تصدى الإنسان لحملها وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟

اختلفت الأقوال فى تأويلها[1] :

خصها بعض المفسرين بآدم ، حمل الأمانة ثم لم يلبث أن عصى ربه فأخرج من الجنة ، مع اختلافهم فى تحديد مدة التجربة . فمن قائل :

« فما كان إلا قدر ما بين العصر والليل حتى أصاب الخطيئة » .

---

(١) انظر كل هذه الأقوال والتأويلات فى تفسير الطبرى : سورة الأحزاب . ولا يكاد ما فى التفاسير الأخرى يخرج عنها .

وآخر يقول :

« فما لبث ما بين الظهر والعصر » .

وثالث يقول :

« فما مكث إلا قدرَ ما بين العصر إلى غروب الشمس » .

مع ما يبدو من حرص القرآن الكريم على عدم التعلق بمثل هذه الجزئيات التى لا شأن لها بجوهر الحادث ومناط العبرة !

وخصها بعضهم بقابيل : ائتمنه أبوه آدم على أهله وولده ، فما لبث أن خان الأمانة وقتل أخاه هابيل .

وقيل : الأمانة الطاعة . والفرائض ، وكلمة التوحيد . والعدالة ، وحروف التهجى ، والعقل .

واختار الطبرى فى تفسيره . أن يعم بها جميع الأمانات فى الدين . وأمانات الناس .

واختار « الراغب الأصفهانى » العقلَ « فإنه الذى تتحصل به معرفة التوحيد وتجرى العدالة وتُعلم حروفُ التهجى وكل ما فى طوق البشر تعلمه . وفعلُ ما فى طوقهم من الجميل . وبالعقل فضِّل على كثير من خلقه »[١] .

واختار « الزمخشرى » الطاعة . مع تأويل الحمل فى معنى الإباء والنكوص[٢] .

ونعرض كل هذه التأويلات على البيان القرآنى . فنرى أن تخصيص الأمانة بآدم مع ربطها بخروجه من الجنة . يأباه سياق الآية فى حمل الإنسان الأمانة . بعموم مطلق لا يقف عند ابتلاء آدم وخروجه من الجنة .

وأوهى منه ، أن تُخصَص الأمانة بقابيل ، خان ما ائتمنه عليه أبوه آدم . فالذى فى الآية أن الله هو الذى عرض الأمانة ، فحملها الإنسان . ولا يمكن أن نضع « آدم » مكان الله — سبحانه — ولا أن نضع « قابيل » مكان الإنسان .

(١) مفردات القرآن : مادة (أمن) .
(٢) الكشاف : سورة الأحزاب .

وتأويل الأمانة بعموم الأمانات ، على ما اختار الطبرى . يرده أن الأمانة فى آية الأحزاب متميزة بالإفراد والتعريف بأل ، والبيان القرآنى حين اتجه إلى التعميم ذكر « أمانات » بصيغة الجمع . فى آيات (المؤمنون ، والمعارج ، والأنفال) .

فعدول القرآن عن صيغة الجمع إلى « الأمانة » لا يسهل معه تأويلها بعموم الأمانات .

وقصر الأمانة على العقل . كما ذهب الراغب فى (المفردات) ينفيه أن العقل وإن هدى إلى حمل الأمانة ، فليس مقبولا أن يكون مرادفًا لها . فى حس العربية المرهف الذى يجلوه البيان القرآنى .

والقول بأن الأمانة هى الفرائض الدينية ، يرد عليه أن القرآن جاء برعاية الأمانات إخباراً عن المؤمنين ، فى سياق يجمعها مع أداء الفرائض الدينية :

« الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم للزكاة فاعلون . . .

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » .
[المؤمنون : ١ – ٩]

ومثلها سياق آية المعارج فى الأمانات :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . . .

إلى قوله تعالى :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون » .

[١٩ – ٣٤]

فشهد ذلك بأن الأمانات المرعية ، شىء غير الفرائض الدينية المؤداة : صلاة وزكاة وإيمانًا بالله وباليوم الآخر ، واجتنابًا لكبائر الإثم والفواحش .

وإذ نص القرآن الكريم فى مواضع ورود أمانة وأمانات ، على ما هو لله منها وما هو للناس ، فقد تعين أن إفراد « الأمانة » — معرفة بأل ، فى آية الأحزاب ،

والتصريح بحمل الإنسان لها، في العموم المطلق للفظ الإنسان، ومنه المؤمن وغير المؤمن . تعين أن تكون الأمانة فى مثل هذا السياق اختصاصًا مميزاً . يتصدى لحملها الإنسان .

وتأويل « الأمانة » بالطاعة ، على ما ذهب إليه بعضهم . يرد عليه مثل ما يرد على تأويلها بالفرائض الدينية . ثم يحتاج بعد ذلك إلى تدبر لمعنى الحمل الذى أولوه بالخيانة ليستقيم لهم مذهبهم فى تفسير الأمانة بالطاعة ، أى أن الإنسان بحمله الأمانة التى هى الطاعة . قد تخلى عنها وخانها .

ونص عبارة القاموس : « وقوله تعالى : فأبين أن يحملنها ... وحملها الإنسان، أن يَخُنَّها وخانها الإنسان . والإنسان هنا الكافر المنافق » .

ثم سكت صاحب القاموس فلم يوضح لنا كيف يكون الحمل فى اللغة خيانة للأمانة . و إباء الحمل وفاء بحقها .

و « الزمخشرى » فى الكشاف قال ما نصه :

« معنى أبين أن يحملنها وحملها الإنسان . فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها » .

ثم استطرد يشرح هذا الوجه من تأويل حمل الأمانة بإباء الطاعة . فكانت خلاصة كلامه فيه أن الإنسان وحده هو الذى أطاق حمل الأمانة فلم يؤدها ، على حين لم تطقها السموات والأرض والجبال فأدينها طاعة وامتثالا لأمر الخالق ، وتخلصن من عبء حملها .

ومع شعورى بالجفوة تجاه هذا التأويل ، أتوقف عن الحكم عليه حتى أعرضه فى أناة على كل المواضع التى جاء فيها « الحمل » بمختلف صيغه فى الكتاب المحكم ، لأرى ما إذا كان أى موضع منها يقبل تأويل الحمل بالخيانة والتخلى عن المحمول وعدم الوفاء بحقه ؟

وقد وردت مادة « حمل » فى القرآن الكريم فى ثلاثة وستين موضعًا، منها سبعة عشر فى حمل الأجنة ، مثل آيات :

مريم ٢٢ : « فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًّا » .

لقمان ١٤ : « و وصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهْنًا على وهن » .

فاطر ١١ : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » وفصلت ٤٧

الطلاق٤ : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » .

ولا يمكن بأى وجه ، أن نؤول حمل الأمهات بخيانة أجنتهن والتخلى عنها .

واستعمل القرآن الكريم الحمل نحو ست وعشرين مرة ، بمعناه الحسى المألوف المعروف ، فى مثل آيات الطوفان :

«كذّبت قبلهم قومُ نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصِر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجّرنا الأرضَ عيونًا فالتقى الماءُ على أمر قد قُدر . وحملناه على ذات ألواح ودُسُر» .

[القمر : ١٣]

« قلنا احملْ فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القولُ ومن آمنَ ، وما آمن معه إلا قليل » .

[هود : ٤٠]

« وآيةٌ لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفُلك المشحون »

[يس : ٤١]

« ذريةَ مَن حمَلنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكورًا » .

[الإسراء : ٣]

« إنا لمـَّا طغى الماءُ حملناكم فى الجارية »

[الحاقة : ١١]

ومثل آيات :

يوسف ٧٢ : « ولمن جاء به حِملُ بَعير » .

مريم ٢٧ : « فأتتْ به قومَها تحمله قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئًا فَريًا » .

الإسراء٧٠ : « ولقد كرّمنا بنى آدمَ وحملناهم فى البر والبحر » .

الأنعام ١٤٢ : « ومن الأنعام حَمولةً وفرشا » .

النحل ٧ : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِ الأنفُس » .

ولا يمكن كذلك أن يؤول الحمل فى أى موضع منها. بالنكوص عن العبء أو خيانة المحمول والتخلى عنه!

وجاءت المادة فى الحمل المعنوى، فى نحو عشرين موضعًا، مثل آيات:

البقرة ٢٨٦: «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعَها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربَّنا لا تؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا. ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربَّنا ولا تُحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

طه ١٠١: «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق. وقد آتيناك من لدُنا ذِكراً. من أعرض عنه فإنه يحملُ يوم القيامة وِزراً. خالدين فيه وساء لهم يومَ القيامة حِملا».

طه ١١١: «وعنَت الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خاب مَن حمل ظلمًا».

النساء ١١٢: «ومَن يكسبْ خطيئةً أو إثمًا ثم يَرمِ به بريئًا فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا».

العنكبوت ١٢، ١٣: «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتَّبِعوا سبيلَنا ولنحمل خطاياكم وما هُم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون. ولَيحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالا مع أثقالِهم. وليُسألُنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون»

النحل ٢٥: «ليحملوا أوزارَهم كاملة يومَ القيامة ومن أوزارِ الذين يُضلونهم بغير علم. ألا ساء ما يَزِرون».

فهل يسوغ لنا أن نتأول حمل الوزر والإصر والخطيئة والبهتان والإثم. بأنه نكوص عن ذلك كله ورفض لاحتمال تبعته. فيسوغ لنا، مِن ثَم، أن نتأول حمل الخيانة بالتخلى عنها وخيانتها؟!

ولنتدبر آية الجمعة فى اليهود:

«مثلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثَلِ الحمارِ يَحمل أسفاراً».

لو ذهبنا إلى تأويل حمل الإنسان الأمانة بأنه خيانة لها، وتأويل إباء السموات

والأرض والجبال أن يحملنها بالوفاء بحقها ، بجاز لنا القول فى آية الجمعة — والقرآن يفسر بعضه بعضا — إن نفى حمل اليهود للتوراة وفاء منهم بحقها ! ولما كان هناك وجه لتمثيلهم بالحمار يحمل أسفاراً « بئس مثلُ الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

ولننظر كذلك فى آية النور ٥٤ :

« قل أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم » .

إنه سياق واحد فى الآية الواحدة ، والاختلاف بين الموضعين ، ليس فى دلالة لفظ التحميل ، وإنما هو التفاوت بين ما حُمل الرسول وما حُمل الذين تولوا .

فإن قال قائلون إن الحمل فى آية الأمانة مختلف عن الحمل فى كل الآيات التى ورد فيها فى القرآن الكريم ، فإن منهجنا يأبى علينا أن نحمل تبعة تفسير القرآن بغير القرآن ، أو توجيه لفظ منه دون تتبع سياقه فى كل مواضع وروده بالكتاب المحكم . كيلا نتورط فى شبهة وجود اختلاف فيه :

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

* * *

والتزامى هذا المنهج ، يحملنى على أن أستبعد كذلك تأويل « الإنسان » فى آية الأحزاب بالكافر أو المنافق ، فلا وجه إطلاقاً لهذا التخصيص والبيان القرآنى يقضى بأنه مطلق الإنسان ، على مألوف استعمال الكتاب المحكم للفظ « الإنسان » معرفاً بأل ، لعموم جنسه .

الإنسان هو الذى تصدى لحمل الأمانة ، وقد أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال .

وواضح أن عرض هذه الأمانة عليهن ، وإشفاقهن منها وإباء هن أن يحملنها . إنما هو على سبيل المجاز ، بياناً لصعوبة الأمانة وباهظ عبئها .

وليست « الجمادية » فى السموات والأرض والجبال هى مناط العجز عن

حمل الأمانة . كما يذهب متأولون . وإنما مناطه ما نرى من ضخامة أجرامها وطاقتها على الحمل والتحمل: فالسموات الرحبة المرفوعة بغير عمَد ترونها. والأرض التى تحمل صلب الصخور وشاهق الجبال والمبانى وملايين المخلوقات . والجبال التى تأخذ الأبصار بشموخها وصلابتها ورسوّها ورسوخها . هذه جميعًا أشفقت من الأمانة وأبت حملها . وحملها هذا الإنسان . وأين هو فى ضآلة جرمه ومحدود طاقته . بالقياس إلى السموات والأرض والجبال ؟

* * *

أفلا تكون هذه « الأمانة » هى الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار ؟

بلى !

فكل الكائنات عدا الإنسان . مسيَّرة بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والامتثال . دون تحمل لتبعة ما تعمل : فلو أن السموات قذفت الأرض بالصواعق . وأمسكت ماء السحب فأتلفت الزرع والضرع من جدب وظمأ . أو لو أنها جادت بالغيث فأحيت الأرض من بعد موتها . . . لما كانت بحيث تسأل عن شىء من هذا ومثله .

ولو أن الأرض زُلزلت فدمرت الأحياء والقرى . وقذفت من جوفها بالحمم واللهب فأهلكت وشردت . أو لو أنها أخرجت من باطنها ثمين المعادن والزيوت فعمَّرت وأغنت . . .

ولو أن الجبال تهاوت وتصدعت فقضت على بلدان كانت آمنة مطمئنة . . .

لما حوسبت السموات والأرض والجبال على خير أو شر !

الإنسان وحده هو المسئول عن عمله . المحاسَب عليه ثوابًا وعقابًا . لا يحمل أحد عنه تبعة مسعاه . ولا يفوت بغير جزاء . . .

* * *

هذه هى الأمانة فيما أطمئن إليه . بعد طول تأمل لآيتها فى البيان القرآنى .

حملها الإنسان ، مطلق الإنسان ، تحقيقاً لذاته وممارسة لخلافته فى الأرض . ولو كان قد قبل التسخير لأعفاه من المسئولية والحساب ، لكنه أبى إلا أن يحتمل أمانة إنسانيته ، وإن جهل خطرها وقصّر فى الوفاء التام بكل حقوقها «وكان الإنسان ظلوماً جهولا » .

وإيثار لفظ الأمانة هنا ، على غيرها من ألفاظ يُظن أنها مرادفة لها ، كالتكليف والمسئولية والتبعة والعهد . . .

هذا الإيثار ملحوظ فيه حس العربية الأصيل للأمانة ، بما تعنى من أمن الخوف وحذر الخيانة .

فالإنسان فيما يحمل من أمانة إنسانيته ، يخاف الخيانة وهو خاضع لرقابة خالقه ، مسئول أمام ضميره . ومن هنا كانت مشقة الأمانة وصعوبتها ، إذ تلوح الفرص للإنسان مغرية بالنفاق تهربا من المسئولية أمام الناس ، ومن ثم يتعرض لامتحان عسير وبلاء مبين .

والإيمان من الأمانة ، لكنه أخص منها بمجال العقيدة ، على حين تتسع دلالة الأمانة لمعنويات الإنسانية ، ومسئوليتها التى تأبى التسخير وتتحمل تبعة الحرية والاختيار . وما أشقها من تبعة قل فينا من يُقدِّر ثقل حملها ويدرك صعوبة الابتلاء بها ، وإن الإنسان لظلوم جهول !

وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ، وأعفاها التسخير من المسئولية والحساب ، فما عادت بحيث توصف بجهل وظلم ، أو تمتحن بنفاق وشرك ، أو تتعرض لعقاب وثواب . . .

ولا يعنى قصور إدراك الإنسان لتبعة الأمانة ، أو تقصيره فى أداء حقها على الوجه الأكمل ، أن يُؤثِر السلامة فيشفق من حمل الأمانة ويأباها ، بل لا بأس عليه من مخاطر الابتلاء وعثرات الجهل ، فإنما العبرة بصدق النية ويقظة الضمير وصحة الإيمان . ومجال التوبة مفتوح أمام الإنسان الذى يتعثر ويخطئ فتصهره التجربة ويهتدى بالخطأ إلى طريق الحق .

والإثم كل الإثم ، على من يخون الأمانة عمداً ، مجاهراً بالخيانة أو منافقاً

يتّقى حساب الناس ولا يتّقى حساب الله والنفس اللوامة .

ومن هنا كان حمل الأمانة ابتلاء للإنسان :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا . ليعذب اللهُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

* * *

وليس من العسير أن نرى فى حمل الإنسان الأمانة ، على هذا الوجه ، أثراً حتمياً للمكانة التى أقرها له الدين بخلافته فى الأرض ، بما تقتضيه هذه الخلافة من حق التصرف وأهلية المسئولية . وبما تلقيه على عقل الإنسان وضميره من تبعات جسام ، أُعفيت منها كل الكائنات الأخرى .

لكن الوضع يظل غير مفهوم ، إذا لم يقم على حق مقرر للإنسان فى الحرية ، وهذه هى القضية التى نتصدى الآن لتناولها ، فى هَدْى القرآن الكريم .

حُرّيةُ الإنسَان

- الحرية ، والرق .
- حرية العقيدة .
- حرية العقل والرأى .
- حرية الإرادة .

مضى القول فى الأمانة التى حملها الإنسان بمقتضى خلافته فى الأرض ، وأن هذا الوضع لا يمكن أن يفهم أو يتصور ، إذا لم يقم على حق أصيل مقرر فى الحرية الإنسانية .

وإذا كان من المتعذر تناول قضية الحرية فى أفقها العام الذى يلم بكل الجهود والدراسات فيها ، قديمة وحديثة ، شرقية وغربية .

فكذلك يبدو من الصعب أن أتناولها فى دائرة الإسلامية التى جمعت رصيداً من بحوث الفلاسفة وعلماء الدين وأعلام الفكر الإسلامى ، ومن ثم أقتصر على تناول القضية من زاوية محددة لا أعدوها ، فأنظر فيها على هدى ما يقدمه إلينا كتاب الإسلام .

ولا يعنى الاقتصار على القرآن الكريم ، أنى أتجاهل ما يقدمه الحديث الشريف من قيم فى الحرية ، أو أغض من شأن التراث الكبير لأئمة السلف الصالح الذين ناضلوا عن حرية الإنسان ، وإنما الأمر كما قلت قصور منى عن استيعاب ذلك كله ، ولا بأس علىّ إذا أنا تكلمت عن الحرية فى الإسلام فخصّصت مقالى للمصدر الأصيل الذى يهدينا إلى جوهر الفكرة الإسلامية عن الحرية .

*

والقضية ذات شعب ، منها ما يتصل بالحرية العامة المناقضة للرق ، ثم حرية الاعتقاد ، وحرية الفكر والرأى ، وحرية الإرادة .

وإيرادها على هذا الترتيب ، قد يبدو فيه ملحظ أن حرية الإنسان المناقضة للرق ، هى أدنى المراتب التى تتقرر للإنسان بمجرد مولده إنساناً ، تليها حرية الاعتقاد وحرية الفكر ، وهما من لوازم إنسانيته ، ثم حرية الإرادة وهى أصعب عنصر من عناصر القضية ، وإن كانت الأساس الذى يقوم عليه حمل الإنسان أمانته ، وأهليته للخلافة فى الأرض .

ولكن الحقيقة أن الحرية كلٌّ لا يتجزأ ، فإن تكن البشرية قد استطاعت بعد نضال طويل أن تعلن تحرر الإنسان من أغلال الرق المهدر للإنسانية ، فلا يزال عليها

أن تناضل طويلا من أجل استكمال وجودها الحر ، بتحرير العقيدة والعقل والإرادة .

مدركة أن حرية الإنسان كلٌّ لا يتجزأ ، وأى مساس بجانب منها عدوان على شرف الإنسان وتعطيل لمسئولية أمانته .

ثم إن عليها أن تناضل طويلا ، لتحرير مفهوم الحرية من شوائب المسخ ، كيلا يلتبس بالفوضى والتحلل ، ولكى يرسخ الإيمان بأن هذه الحرية ليست منحة وعطاء ، وإنما هى فرض مقرر على كل قادر على احتمال تبعاتها الجسام ، أهل للاضطلاع بمسئوليتها الباهظة .

الحُـرّية .. والـرّق

« ما كان لبشر أن يؤتيه اللهُ الكتابَ والحكمةَ والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله » .

[سورة آل عمران]

وحق الحرية من الرق يتقرر أصلا ، بأن جوهر الدين كله هو عبادة الله وحده لا نشرك بعبادته أحدا .

وإذا كانت البشرية المتدينة قد تورطت قبل الإسلام فى شبهة الشرك بتأليهها الرسل ، أثراً من ميراثها المتخلف من عصر عبادة الأبطال البديل لعصر تعدد الآلهة ، فإن كتاب الإسلام فيما استصفى من جوهر العقيدة فى الأديان التى جاء خاتماً ومصدقاً لها ، قد تشدد فى تقرير المساواة التامة المطلقة بين البشر ؛ فهم جميعاً سواء ، خلقوا من نفس واحدة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . . . »

[النساء : ١]

ـ وانظر معها آيات : الأنعام ٩٨ ، الأعراف ١٨٩ ، الزمر ٦ .

كما تتقرر البشرية بين الناس جميعاً على وجه المماثلة التى هى أتم المشابهة ، فى عدد من الآيات المحكمات ، نقلناها فى الحديث عن بشرية الرسل .

وبهذه المساواة بين الناس ، والمماثلة فى بشريتهم جميعاً ، لا يدع الإسلام سبيلا إلى أن يكون لبشر حق استرقاق بشر مثله ، ويحمى الإنسانية من رواسب ميراثها القديم فى عبادة المخلوقين ، وإنما العبودية لله وحده .

وليس لأحد ـ مَن كان ـ أن ينتحل صفة الربوبية فيستعبد الناس وقد خلقهم الله من نفس واحدة ، وهم جميعاً عباد الله .

وليس لقوم أو جنس أن يزعموا الحق فى استعباد قوم غيرهم بدعوى تفاضل بالقوة أو التمدن أو الثراء ، أو بدعوى حق إلهى مزعوم فى أنهم الصفوة المختارة من خلق الله ، وهى دعوى انتحلها من قديم من زعموا أنهم شعب الله المختار ، وحسمها كتاب الإسلام بآية المائدة ١٨ :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق . . . »

كما حسم التفاضل بين الأفراد والشعوب بغير التقوى والعمل الصالح :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

[الحجرات : ١٣]

* * *

ومع هذا التقرير لحق الإنسان فى الحرية ، لا يعبد إلا خالقه ، واجه الإسلام فى زمن المبعث ، مجتمعاً متصدعاً بطبقية ضارية ، عمادها استرقاق الأرستقراطية المعتزة بجاهها ومالها ، للموالى من الأسرى والعبيد الذين لا يجرى فى عروقهم الدم العربى الخالص . وبدت المشكلة عصية على الحل الواقعى الذى يقوض بناء اجتماعياً رسخته تقاليد موروثة وأعراف مقررة . ومع ذلك ، لم يكد نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام يجهر بدعوته ويتلو آيات من وحى ربه ، حتى أدركت الطبقة المستضعفة أن الدين الجديد هو ملاذها من محنة الرق الذى أهدر إنسانيتها .

* * *

ومؤرخو الحضارة الإنسانية ، قد شهدوا للإسلام بأن وضع الرق فيه كان أهون من وضعه لدى أمم سابقة ، كالرومان واليونان والفرس . غير أنى لا ألوذ بشىء من هذه المقارنة فى الحديث عن القرآن والرق ، وإنما ألوذ بموقف القرآن تجاه هذه المأساة البشعة ، وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة تماماً . إن كتاب الإسلام لم يكتف فى مواجهة المأساة بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده : وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد إلى إغلاق المنفذ الجديد من الاسترقاق من ناحية ، وإلى تصفية الرق القائم ، فى عصر المبعث ، من ناحية أخرى .

فأما إغلاق المنفذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا المورد الأكبر للرقيق . وتشهد آية محمد ، أن كتاب الإسلام لا يجيز الأسر فى قتال الكفار ، وإنما يخير المسلمين حين النصر ، بين أمرين لا ثالث لهما : المنّ على الأسرى ، أو قبول الفدية فيهم :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاقَ فإما منًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحربُ أوزارَها ، ذلك ولو يشاءُ اللهُ لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قُتلوا فى سبيل اللهِ فلن يُضل أعمالهم » .

والآية نزلت فى العهد المدنى الذى اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع . بعد أن اتجهت فى العهد المكى إلى تقرير أصول الدعوة وجوهر الدين .

ولا أقف هنا عند قول لبعض المفسرين بأن الآية نسخت . مع أن من أئمة المفسرين السابقين كالطبرى ، من قرر أن الآية « محكمة لم تنسخ » .

وإذ قال كتاب الإسلام فى أسرى الحرب : فإما منًّا بعدُ وإما فداء .

ولم يقل الثالثة . وإما أسراً واسترقاقاً .

فقد سد بذلك المنفذ الأكبر للرق ،وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل...

وفى تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن فى العهد المكى المبكر ، فحض الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنسانى الحر . ونص على أن المرحلة الأولى لاقتحام العقبة ، هى فك الرقاب المصفّدة بأغلال الرق ، دون أن يقيد هذا الفك بكفارة من ذنب . فذلك قوله تعالى فى « سورة البلد » التى تستهل باللفت إلى أوضاع اجتماعية مريضة فاسدة فى البلد الحرام ، توارثها خلف عن سلف ، وأسلمها والد إلى ولد ، ثم بيان غرور الإنسان بماله وقوته ، وقد تهيأ له من وسائل التمييز والبصر ما يهديه إلى طريقى الخير والشر :

« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيماً ذا مقربة .أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

هذه هى العقبة التى ينبغى أن يقتحمها الإنسان احتمالا لأمانة إنسانيته ، قد بينها القرآن الكريم على ترتيب درجاتها ومراحلها : تحرير الرقاب ، والتكافل الاجتماعى ، ثم الإيمان بالله وأداء حق الجماعة فى التواصى بالصبر على تكاليف الإنسانية ، والتواصى بالمرحمة .

ومن المفسرين من توقفوا عند هذا الترتيب فى آيات العقبة ، فلم يرتاحوا إلى

صريح سياق النص . والإيمان فيه يأتى بعد فلك رقبة وإطعام يتيم ومسكين . وذهبوا مذاهب شتى فى صرف « ثم » عن معناها اللغوى[1] . . .

وسياق الآيات صريح فى تقديم « فلك رقبة » ويؤنس إليه ما فى القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

« أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » .

ومثل سورتى التكاثر والهمزة . وسورة العصر التى تأتى تكاليف الإنسان فيها ومسئوليته الاجتماعية . قرين الإيمان بالله . وكلها سور مكية .

ثم فى العهد المدنى الذى اتجهت فيه العناية إلى التشريع . أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم .

وقد بدأ العهد المدنى بسورة البقرة وفيها آية البر :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المالَ على حبِّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

[١٧٧]

ثم حدد كتاب الإسلام مصارف الصدقات — وهى مصدر الإيراد لبيت المال — فجعلها ثمانية ، من بينها تحرير الرقاب :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضةً من الله والله عليم حكيم » .

[التوبة : ٦٠]

وفرض الإسلام على المؤمن . تحرير رقبة كفارة لعدد من الذنوب : منها الحلف فى الأيمان .

[المائدة : ٨٩]

---

(١) انظر هذه التأويلات ومناقشتى لها فى تفسير سورة البلد من كتاب « التفسير البيانى للقرآن الكريم » الجزء الأول ، ط المعارف بالقاهرة .

« لا يؤاخذُكم اللهُ باللغوِ فى أيمانِكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمانَ فكفَّارتهُ إطعامُ عشرة مساكينَ من أوسطِ ما تطعمون أهليكم أو كسوتُهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم »
[المائدة : ٨٩]

والقتل الخطأ (النساء ٩٢) .

والظِّهار (المجادلة ٣) .

والبيان القرآنى ، حين يتحدث عن تحرير العبيد فيذكر الرقاب بصيغة الجمع ، فمسئولية التحرير فيها على الجماعة وولى الأمر ، والعبء فيها على المال العام للمسلمين .

أما حين يستعمل « الرقبة » بصيغة المفرد ، فهذه هى مسئولية الإنسان فرداً . إما احتمالا لأمانة إنسانيته واقتحاماً للعقبة فى سبيل تحقيق الوجود الحر ، (سورة البلد) ، وإما كفارة عن ذنب . يطرد ذلك ولا يتخلف حيثما استعمل القرآن لفظ رقبة فى تحرير العبيد .

وفى هذا الاستقراء ، إيذان صريح بأن كتاب الإسلام فى تصفيته لوضع الرق القائم عصر نزوله ، ألقى على الإنسان تبعته من هذا التكليف فترك الحالات الفردية تُصفى عن طريق الأفراد ، أما الرقيق من حيث هم طبقة فى المجتمع ، فألقى تبعة تحريرهم وفك رقابهم على ولاة الأمر ، والعبء على بيت المال .

* * *

لى إذن أن أقرر :

أن الإسلام من حيث المبدأ ، نقض الرق أساساً ، بتحريم عبودية الإنسان لغير خالقه .

وفيما يتصل بالوضع الذى كان قائماً ، سد الباب الذى يدخل منه الرق ، بالنص على التخيير فى أسرى الحرب بين المن والفداء . ثم عمد إلى تصفية الرقيق ، بإلزام بيت المال بتحرير الرقاب ، من حيث هى طبقة ، وتشريع فك الرقبة فى الحالات الفردية ، كفارة عن عدد من الذنوب منصوص عليها فى كتاب الإسلام .

كما شرع المكاتبة ، منفذاً آخر لتصفية الرق القائم ، فإذا رغب العبد إلى

سيده في أن يحرره نظير مبلغ من المال يكتبه العبد على نفسه ، وجب شرعًا أن يجاب إلى ما ابتغى ، وعلى الذين آتاهم الله من ماله ، أن يؤتوا راغبي الحرية من مال الله ، ليعينوهم على فك رقابهم :

« . . . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . . . »

[النور : ٣٣]

وفى النص على أن المال مال الله ، ما يفسح المجال أمام الإنسانية المتدينة ، لحل مشكلة المال التى هى عصب المذاهب المعاصرة .

* * *

ويلحظ فى البيان القرآنى ، أنه وإن استعمل لفظ «عبد» للرقيق فى آية البقرة .

« ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » .

فقد استعمل اللفظ نفسه فى أفضل الناس ، وهم الأنبياء وصفوة المؤمنين :

نوح : « كان عبداً شكوراً » .

وسليمان : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » .

وأيوب : «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنّى الشيطان بنُصْب وعذاب» .

وابن مريم : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » .

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » .

ومحمد : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » .

ولم يستعمل القرآن لفظ « العبيد » فى الرقيق ، وهى الصيغة الخاصة بجمع عبد ، وإنما يأتى لفظ العبيد للمخلوقين « وما ربك بظلام للعبيد » (١٨٢ آل عمران ، ٥١ الأنفال ، ١٠ الحج ، ٤٦ فصلت ، ٢٩ ق)

فكأن القرآن قد تحاشى تخصيص « العبيد » للرقيق ، واستعمل فى جمعهم صيغة « عباد » فى آية النور ٣٢ :

« وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراءَ يُغنهم الله من فضله والله واسع عليم » .

وهذه الصيغة « عباد » تأتى كذلك فى البيان القرآنى ، للصفوة من عباده تعالى ، من ملائكة وأنبياء وعلماء ومؤمنين أتقياء .

وهو ملحظ كريم لا يفوت من ينظر فى موقف القرآن من الرق ، بعد الذى ذكرنا من نقضه مبدئيًّا بتحريم العبودية لغير الله ، وما قدمنا من سده لمورد الرقيق وتصفيته للقائم منه .

وإذا كان الاسترقاق بقى فى المجتمع الإسلامى ، على عهد الرسول والصحابة ، فلست أشك ، بما أعى من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان فى طريقه إلى التصفية ، لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ، ابتداء من العصر الأموى ، من ظروف وأوضاع ضيعت على الإنسانية تلك الفرصة التى أتاحها لها كتاب الإسلام ، لتخليصها من مهانة الرق .

حُرّية العقيدة

« ولو شاء ربك لآمنَ مَن في الأرضِ كلّهم جميعًا ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

[سورة يونس]

« لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشْدُ من الغَيّ » .

[سورة البقرة]

قضية الصراع الدينى والخصومة المذهبية ، قديمة موغلة فى أعماق الزمن ، تلقاها عصرنا فيما تلقى من تركة العصور الخوالى ، بعد أن تضخم ميراثها من الضحايا والأحقاد . وشهد التاريخ بأن البشرية لم تروع بمثل ما رُوعت به مما جنى على الناس التعصب الدينى والخلاف المذهبى الذى مزق أصحاب الدين الواحد طوائف وشيعًا ، وأوقد بينها نار العداوة والبغضاء !

وتلقى العصر مع هذه التركة المثقلة بالمآسى والمشحونة بالفواجع ، أمل الإنسانية المتدينة فى التسامح والتقارب بين مختلف الأديان ، تقريراً لحرية العقيدة وتفادياً لمزيد من الضحايا .

وهو أمل استشرف له الإنسان ، منذ جاءته رسالة الإسلام ،ختامًا لرسالات السماء .

* * *

والفكرة العامة عن تسامح الإسلام واحترامه لحرية الاعتقاد والتدين ، لا تكفى لبيان الأفق الرحب العالى الذى استشرف بالإنسانية إليه .

فالحق أن الإسلام فى إقراره لحرية التدين ، يلزم أتباعه بهذا الإقرار ديناً وعقيدة وسلوكًا ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة والمسالمة .

وهو يبدأ أول ما يبدأ ، فيأخذ الرسول الكريم بهذا المبدأ ، اتقاء لما قد يدفعه إليه الإيمان من أخذ الناس قسراً بالدين الحق ، وهو ما يأباه الإسلام نصًّا وروحًا ، إلزاماً للإنسان بحمل الأمانة ، وتقديراً لأن العقيدة لا تكون عقيدة حتى تصدر عن اعتقاد ، والإيمان لا يكون إيمانًا حتى ينبع من القلب والضمير عن رضى خالص وطمأنينة صادقة . ولا خير فى كلمة ينطق بها اللسان زوراً ويكفر بها القلب ، فذلك هو النفاق الذى يعده الإسلام شرًّا من الكفر الصريح .

وفى العهد المكى نزلت آية يونس ، خطاباً لنبى الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » .

[٩٩]

وبعدها ، فى مستهل العهد المدنى ، نزلت آية البقرة تقرر أصل التشريع :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشدُ من الغىّ » .

[٢٥٦]

وهذا الإقرار لحرية الاعتقاد ، يلقى على الإنسان تبعة اختياره ويحمله مسئولية حريته . ومن هنا كان تأكيد القرآن لمهمة الرسول . وأن ليس عليه إلا أن يبلغ رسالته :

« فإن أسلموا فقد اهتدَوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغُ والله بصير بالعباد » .

[آل عمران : ٢٠]

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسُلِ إلا البلاغُ المبين » .

[النحل : ٣٥]

« فإن توليتُم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .

[المائدة : ٩٢]

ويتكرر هذا القصر لمهمة الرسول على البلاغ . فى القرآن الكريم ، أكثر من عشر مرات ، محدداً موقفه من المكذبين والمعرضين . بما يؤصل المبدأ الإسلامى فى حرية الاعتقاد :

« فإن أعرضوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظًا ، إن عليك إلا البلاغ . . . »

[الشورى : ٤٨]

ويقدر القرآن الكريم ما فى أخذ الرسول بهذا المبدأ من صعوبة ومشقة ، إذ يحزنه عليه الصلاة والسلام ألا يؤمن الناس جميعًا بما آمن به ، ويضيق صدره بمن يكذبونه ويعرضون عنه . ولكن هذه المشقة البالغة ليست إلا بعض ما يجب أن يحتمله من أعباء رسالته ، وقد أمِر ألا يكره أحداً على الإيمان ، وأن يدعو إلى

سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ وأن يجادل المرتابين والكفار والمشركين بالتى هى أحسن ، إلا أن يبغوا ويعتدوا ، فيشرّع القتال دفاعًا عن الإسلام وإقراراً لحق معتنقيه فى حرية العقيدة .

ومن العهد المكى المبكر ، تلقى الرسول هذه الآيات البينات ، نوردها بترتيب نزولها :

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولىَ دين » .

[الكافرون]

« ولا تحزنْ عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

[النحل : ١٢٧]

« فاصدعْ بما تؤمَر وأعرضْ عن المشركين » .

[الحجر : ٩٤]

« ولقد نعلمُ أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون ، فسبح بحمدِ ربك وكن من الساجدين » .

[الحجر : ٩٧ — ٩٨]

« قد نعلم إنه ليحزنُك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كُذبت رسلٌ من قبلِك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدلَ لكلمات الله ولقد جاءك من نبأِ المرسَلين . وإن كان كبرُ عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغِى نَفقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السماء فتأتيَهم بآية ، ولو شاء اللهُ لجمعهم على الهدَى فلا تكونَن من الجاهلين »

[الأنعام : ٣٣ — ٣٥]

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظة الحسنةِ وجادلْهم بالتى هى أحسنُ إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرُك إلا باللهِ ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ فى ضيق مما يمكرون » .

[النحل : ١٢٥ : ١٢٧]

* * *

وننظر في موقف الإسلام من الأديان السماوية قبله ، فنراه لا يكتفى بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك الإقرار بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة لا لمجرد التسامح أو المسالمة . كما يلزمهم أيضًا أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات السماء :

« نزّل عليك الكتابَ بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيلَ من قبلُ هدى للناس وأنزل الفرقان » .

[آل عمران : ٣ – ٤]

« والذى أوحينا إليك من الكتابِ هو الحقُّ مصدقًا لما بين يديه : إن اللهَ بعبادِه لخبير بصير » .

[فاطر : ٣١]

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . . . »

« وقفينا على آثارِهم بعيسى بن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراةِ وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونور . . . »

« وأنزلنا إليك الكتابَ بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ . . . »

[المائدة : ٤٦ – ٤٨]

(وانظر معها آيات : البقرة ٩١ ، ٩٧ والنساء ٤٦ ، والأحقاف ٣٠) .

* * *

ومع اعتراف الإسلام بتلك الأديان المتعددة التى سبقته . وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين . . .

مع هذا كله ، فإنه فى رياضته للبشرية على تحقيق وجودها الأسمى ، استشرف بها إلى غاية تبدو بعيدة ، وأفسح لها مجال الطموح إلى ما وراء هذا الأمل القريب فى احترام حرية التدين .

تلك الغاية البعيدة التى رنا كتاب الإسلام إليها ، هى الوحدة الجامعة تلتقى فيها الإنسانية المتدينة على الإيمان بالله ، لا تُفرق بين أحد من رسله .

ذلك حين قرر وحدة الأديان بوحدة مصدرها وغايتها ، فالذى تلقاه خاتم

الرسل هو فى جوهره ما تلقاه الرسلُ من قبله :

« ما يقالُ لك إلا ما قد قيل للرسلِ من قبلِك » .

[فصلت : ٤٣]

« ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

[العنكبوت : ٤٦]

ثم يبين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة ، فى مثل هذه الآيات :

« قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

« يا أهل الكتابِ لم تكفرون بآياتِ اللهِ وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

[آل عمران : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١]

* * *

وإذا لم تكن طاقة البشرية فيما مضى قد أسعفت على الاستجابة لتلك الدعوة ، فإن القرآن الكريم لم يرض لها واقعها ، بل أغراها بمثالية رفيعة تظل دائبة السعى نحوها والتطلع إليها .

ومهما تبدُ الغاية بعيدة والمرتقى صعبًا ، فإن للإنسانية المتدينة من هدى الإسلام ما يغلب دواعى اليأس والقنوط ، وفيها هذه الآيات التى تلاها خاتم الأنبياء منذ نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان :

« شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

[الشورى : ١٣]

« قل آمنّا باللهِ وما أنزل علينا وما أنزل على إبرهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد

منهم ونحن له مسلمون » .

[آل عمران : ٨٤ ومعها آية البقرة : ١٣٦]

« إن الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء ، إنما أمرُهم إلى الله » .

[الأنعام : ١٥٩]

« فأقِمْ وجهَك للدينِ حنيفًا فطرة الله التى فطر الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق اللهِ . ذلك الدينُ القيِمُ ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينَهم وكانوا شيعًا كلُّ حزب بما لديهم فرِحون » .

[الروم : ٣٠ — ٣٢]

« إن الذين يكفرون بالله ورسلِه ويريدون أن يفرقوا بين اللهِ ورسلِه، ويقولون نؤمنُ ببعض ونكفرُ ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا . والذين آمنوا باللهِ ورسلهِ ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورَهم وكان الله غفوراً رحيما » .

[النساء : ١٥٠ — ١٥٢]

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربَّنا وإليك المصير » .

[البقرة : ٢٨٥]

❊ ❊ ❊

بمثل ذلك الإصرار أكد الإسلام أن الحقيقة فى الأديان واحدة يمكن أن يلتقى عندها المتدينون جميعًا فوق أحقاد التعصب وفواصل الخلاف .

وذلك مما يدخل فى حساب علم الاجتماع الدينى ، آية من آيات عالمية الإسلام وخلوده . . .

وقد شُرع القتال فى الإسلام ، لا لإكراه المشركين على الإسلام قسراً ، ولكنْ دفاعاً عن الدين الإسلامى وتأميناً لحق معتنقيه فى حرية العقيدة ، وحماية لبيوت العبادة على اختلاف الأديان ، من أن تهدمها الوثنية الكافرة :

« أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا

من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصُرَن اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

[الحج : ٣٩ – ٤٠]

والقتال ، دفاعاً عن حرية العقيدة ، لم يبدأ إلا فى العهد المدنى من عصر المبعث ؛ وظلت مع ذلك توجيهات الوحى تحمى نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه ، من التورط فى إكراه غيرهم على الإسلام ، وتأمرهم بمسالمة من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم .

من تلك التوجيهات ، آية الأنفال وهى ثانى سورة نزلت بالمدينة :

« وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم ، وما تُنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلْم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » . ٦١ .

وآية الممتحنة ، وهى مدنية كذلك نزلت بعد الأحزاب :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ثم ، فى آخر العهد المدنى ، قبل أن يختتم الوحى بسورة النصر ، نزلت سورة التوبة وفيها هذا التوجيه القرآنى للرسول عليه الصلاة والسلام :

« وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

* * *

ومن تحرير الإسلام ، ختام الأديان ، لعقيدة الإنسان ، إبطاله سلطة

الكهنوتية التى تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما أخذت من صفة الوساطة بين العبد المتدين وخالقه ، وما ادعت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك الغفران أو تصدر قرار التكفير والحرمان !

وذلك ما أبطله الإسلام فلم يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وخالقه :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشُدون » .

[البقرة : ١٨٦]

« وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات » .

[الشورى : ٢٥]

« وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

[طه : ٨٢]

كما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة والنار ، أو يحدد لمخلوق مثله مكانه هناك ، فهو سبحانه الذ يدرى أين يضع رحمته . والرسول المصطفى نفسه لم يكن له شىء من هذه الحقوق الإلهية التى ينتحلها فينا ناس تسلطوا على خلق الله بكهنوتية أبطلها الإسلام .

فى مستهل الوحى ـ نزلت سورة القلم ، ثانى السور على المشهور فى ترتيب النزول وفيها الآية المحكمة :

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ٧ .

وبعدها نزلت آية النجم ـ خطاباً لخاتم الأنبياء :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

وآية النحل ـ مكية كذلك :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ١٢٥ .

* * *

ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للأديان ، إنما نشأ أصلا بسبب ما انتحله رجال الدين فيهم من سلطة كهنوتية بررت باسم الدين البغى والاستغلال ، وهادنت الرجعية والفساد والطغيان ، وامتنزفت أموال المتدينين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو فدية من غضب الله !

ومن عجب أن حركة الإصلاح الدينى التى قام بها « مارتن لوثر » تأثرت بمبادئ الإسلام فى إبطال سلطة الكهنوتية وتحريم صكوك الغفران[1] ، ثم يكون من بيننا من يمارس هذا الحق المزعوم فى أمة مسلمة . فيزعم لنفسه وصاية على الجنة والنار ، وينتحل من سلطة الغفران والحرمان ما استأثر به الله سبحانه ، لم يعطه أحداً من رسله ، فضلا عن أن يعطيه غيرهم ممن يتصدون للإمامة الدينية ، مخلصين أو مزيفين.

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » .
[المائدة : ٤٠]

ويتكرر عقد المغفرة والتعذيب بمشيئة الله فى آيات بينات من كتاب الإسلام ، نتلوها نحن المسلمين ونتلو معها من كلمات الله مثل آيات :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .
[النساء : ٤٨ — ١١٦]

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .
[الزمر : ٥٣]

فأنى لأحد أن ينتحل فينا هذا الحق ، وكتاب الإسلام قد رفع عن الإنسان إصر تلك الكهنوتية ، تقريراً لحرية عقيدته وضميره وعقله . ومما تلقى المصطفى من وحى ربه :

« وكذّب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل » .

« ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » .
[الأنعام : ٦١ — ١٠٧]

---

(١) اقرأ فى هذا « صلة الإسلام بإصلاح المسيحية » وهو بحث قدمه « أستاذنا أمين الخولى » بالألمانية إلى مؤتمر تاريخ الأديان فى بروكسل سنة ١٩٣٥ — ونشره الأزهر مترجماً إلى العربية .

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل » .

[الزمر : ٤١]

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، اللهُ حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل . »

[الشورى : ٦–٤٨]

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

[الغاشية : ٢٢]

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

[النساء : ٨٠]

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عميَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » .

[الأنعام : ١٠٤]

* * *

وكتاب الإسلام يمضى فى رفض الكهنوتية ، إلى المدى الذى لا يغنى فيه استغفار الرسول المصطفى للمشركين والمنافقين من قومه . كما لم يغن استغفار إبراهيم الخليل لأبيه .

« استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

« ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأوّاه حليم » .

[التوبة : ٨٠ – ١١٣]

وحق الشفاعة عند الله ، معلق بإذنه تعالى ورضاه ، بصريح الآيات المحكمات.

« . . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يؤمئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » .

[طه : ١٠٩]

« ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » .
[يونس : ٣]

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك ما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . . » .
[سبأ : ٢٣]

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرَمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . . »
[الأنبياء : ٢٨]

« له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .
[البقرة : ٢٥٥]

فإذا لم يأذن سبحانه ، فهيهات لأحد من شفيع ، وهيهات أن تجدى شفاعة من دونه :

« قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .
[المدثر : ٤٣ — ٤٨]

« وما لى َ لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترُجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إنى إذن لفى ضلال مبين » .
[يس : ٢٣]

« وأنذرْ به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون » .
[الأنعام : ٥١]

«وذَر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكّرْ به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع » .
[الأنعام : ٧٠]

« وأنذرْهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

[غافر : ١٨]

« ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون » .

[السجدة : ٤]

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون » .

[البقرة : ٢٥٤]

« قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض وإليه ترجعون » .

[الزمر : ٤٤]

بكل هذا الإصرار ، أسقط الدين ، فى كتاب الإسلام ، كل وصاية كهنوتية على الإنسان ، تتوسط بينه وبين خالقه أو تحدد له مكانه من جنة أو جحيم .

سبحانه ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . وهو أعلم بمن اهتدى » .

* * *

فأين الإنسانية اليوم من مثالية هذا القرآن ؟

بل أين هى من حرية العقيدة التى أقرها وفرضها ، منذ أربعة عشر قرناً ؟

« ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

حُـرّية العَـقل وَالرأى

« وإذ قال إبراهيمُ ربّ ِ أرِنى كيف تحيي الموتى ،

قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

[سورة البقرة]

« ولقد صرّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ،

وكان الإنسان أكثر شىء جدَلا » .

[سورة الكهف]

أقر الإسلام حرية الإسلام فى الاعتقاد والتدين . إلزامًا له بمسئولية اختياره .

والتاريخ الدينى للبشرية . يفصل الحديث عما لقى الأنبياء فى سبيل دعوتهم من تكذيب واضطهاد . وكل الأديان مجمعة على أنه تعالى لو شاء أن يهتدى الناس جميعًا لتمت مشيئته .

لكنه تعالى ترك الإنسان يحتمل مسئولية هذه الحرية وتبعاتها . وقد تهيأت له وسائل التمييز والهدى : مادية ومعنوية .

وحرية العقيدة ليست إلا عنصراً لا يتجزأ من الحرية التامة الكاملة ، نعمة الإسلام الكبرى على هذا الإنسان بعد أن أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا .

وبعد أن امتُهِن جسمه وعقله وروحه بشتى ضروب الاستعباد والإكراه والمصادرة .

* * *

ومن حرية الاعتقاد ، أن يكون للإنسان حق السؤال حين تعوزه طمأنينة القلب وهو حق أقره كتاب الإسلام بصريح آيته المحكمة :

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرِنى كيف تحيي الموتى ، قال أوَلم تؤمن قال بلَى ولكن ليطمئن قلبى » .

[البقرة : ٢٦٠]

والفكرة الشائعة أن مثل هذا السؤال ، إذا جاز فى القضايا الفكرية والعلمية ، فليس بجائز فى المقررات الدينية التى تقتضى التسليم المطلق . بل إن فينا من يتصورون أن مجرد مناقشة المتدين لأحد من يتكلمون باسم الإسلام ، جرأة وضلال . وقد امتحنت هذه الأمة الإسلامية بمن حجبوا الدين الحق عن جمهرة الناس ، وصادروا حقهم فى مناقشة ما يسمعون . بل قيل فيما قيل : إن المؤمن لا يكون مؤمنًا حقًا ، إذا جرؤ على التردد فى التسليم بكل ما يسمع من تعاليم

وتأويلات، وتوجيهات يقدمها الذين يتكلمون باسم الإسلام ويدعون لأنفسهم وصاية كهنوتية عليه .

وفينا كتاب الإسلام . نتدبر آيته المحكمة فى إبراهيم عليه السلام ، فنراه وهو المصطفى للنبوة قد أعوزته طمأنينة القلب فى كيفية إحياء الله تعالى للموتى ، فسأل ربه أن يريه كى يحيي الموتى ؟

ولم ترعد السماءُ ولا زلزلت الأرض زلزالها . . .

لم يغضب سبحانه على إبراهيم حين سأل ما سأل . ولا جرده من صفة النبوة وشرف المكانة ، بل كانت كلمة الله رداً على سؤال إبراهيم :

« أوَ لم تؤمن ؟

« قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »

وفى جواب إبراهيم اعتراف صريح معلَن ، بأن قلبه لم يكن مطمئنًا ، بل أعياه أن يتمثل كيفية إحياء الله الموتى ، فلم يكتم فى نفسه ماخامره من قلق ، بل طلب الرؤية والمشاهدة التماسًا لطمأنينة القلب ، والراحة من نوازع القلق وهواجس الحيرة . . .

وبقى إبراهيم صديقًا نبيًّا ، يذكره الله سبحانه لرسول الإسلام خاتم الأنبياء ، بعد تباعد الدهور ومر الأحقاب :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا » .

[مريم : ٤١]

وخلد على الزمان ، خليل الله . .

كما خلدت ملته الحنيفية ، مؤيَّدة برسالة الإسلام ختام الأديان :

« ومن أحسنُ دينًا مِمَّن أسلمَ وجهَه للهِ وهو محسن واتبع مِلةَ إبراهيمَ حنيفًا واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا » .

[النساء : ١٢٥]

« قل صدق اللهُ ، فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ حنيفًا وماكان من المشركين » .

[آل عمران : ٩٥]

« إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين » .

[النحل : ١٢٠]

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، مِلةَ أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل . . . » .

[الحج : ٧٨]

* * *

وقصة اهتداء إبراهيم إلى الحق — فيما تلاها علينا كتاب الإسلام — بدأت بالحيرة ، والشك الذى هو مظهر لرشد العقل وحرية التفكير . ومن الشك طال تأمله فى الكون وإصراره على طلب الهدى والتماس اليقين :

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . . . »

[الشعراء : ٦٩ — ٧٨]

« . . . فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكبًا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَن من القوم الضالين . فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفَلَتْ قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجّهت وجهى للذى فطر السمواتِ والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين » .

[الأنعام: ٧٦ — ٧٩]

وهذا هو بعد أن اهتدى إلى خالقه الحق ، المحيي المميت ، لم يزل يجد فى نفسه هاجسًا من قلق ، فالتمس راحة اليقين وطمأنينة القلب .

دون أن يكون فى ذلك ما يلقى أدنى ظل من شبهة ، على صدق إيمانه وعقيدته .

ودون أن يكون فيه ما يقتضي حرمانه من شرف اصطفائه للنبوة !

* * *

فيم قص علينا القرآن الكريم هذه الآيات من نبأ إبراهيم ؟

ليكون لنا منها عبرة وعظة وهدى ، لا لكى نرددها بأفواهنا ، وألبابنا غافلة عن مغزاها وهداها .

وأزيد الموقف بيانًا ، بالحديث عن حرية الرأى ، ومظهرُه حق الجدال فى الأمور الدينية وما يتصل بها من مسائل عملية .

والجدال فى العربية من صيغ المفاعلة . والأصل اللغوى للمادة فى استعمالاتها الحسية المادية ، فيه معنى الصلابة . يقال جدل فلانًا إذا صرعه . والجدَل : عنفُ الخصومة فى المناقشة . وأكثر ما يستعمل الجدال والمجادلة فى صراع الآراء والأفكار حيث يحاول كل مجادل أن يحكم رأيه ويناضل عنه فى صلابة .

وفى القرآن الكريم ، لم يجئ من المادة إلا الفعلُ رباعيًّا « جادَلَ » خمسًا وعشرين مرة . وجاء المصدر منه مرتين بصيغة جَدَل ، وأخريين بصيغة جدال ، ومرة بصيغة مجادلة . والغالب عليها جميعًا أنها فى سياق الجدال الدينى . ونفهم من آية الكهف ، أن الإنسان من شأنه منذ كان ، أن يكثر الجدل . فكأن كثرة الجدل ظاهرة إنسانية من تلك الخواص التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات .

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل . وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

والآية صريحة الدلالة على أن الإنسان لو لم يكن من شأنه الجدل ، لكان حسبه ما جاءه من آيات بينات فيها تصريف للناس من كل مثل .

من هنا ، قدر الإسلام وهو دين الفطرة ، طبيعة هذا الإنسان التى تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات ، فلم ينكر عليه الجدال إلا أن يكون مماراة فاحشة فى الحق الجلى والآيات البيناتِ ، عن عناد ومكابرة ، أو عن إصرار على الجهل والضلال :

« يجادلونك فى الحقِّ بعد ما تبيَّن ، كأنما يُساقون إلى الموتِ وهم ينظرون » .

[الأنفال : ٦]

« وما نرسِلُ المرسَلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادلُ الذين كفروا بالباطلِ ليدحضوا به الحق » .

[الكهف : ٥٦]

« ومن الناسِ مَن يجادلُ فى اللهِ بغيرِ علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانىَ عطفه ليُضِلَّ عن سبيل الله ، له فى الدنيا خِزْىٌ ونُذيقهُ يومَ القيامةِ عذابَ

الحريق . ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد » .
[الحج : ٨ – ١٠]

« كذّبت قبلَهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدِهم ، وهمّت كلُّ أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحِضوا به الحقّ فأخذتُهم ، فكيف كان عقابِ » .
[غافر : ٥]

« إن الذين يجادلون فى آياتِ الله بغير سلطان أتاهم إنْ فى صدورِهم إلا كِبرٌ ما هم ببالغيه . . . »
[غافر : ٥٦]

* * *

أما حين يكون جدال الإنسان عن حاجة إلى الاقتناع ، فمن حقه أن يُصغَى إليه ويجادَل بالتى هى أحسن ، وبهذا أمِر نبى الإسلام والمسلمون :

« ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلْهم بالتى هى أحسنُ ، إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .
[النحل : ١٢٥]

« ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون » .
[العنكبوت : ٤٦]

وقد يتوهم ناسٌ ، أو يوهمون غيرهم ، أن الجدال فى هذا المجال الدينى لا يكون إلا من الكفار والمشركين . والحق أن الإسلام أفسح للإنسان * وكان الإنسان أكثر شىء جدلا * وجه العذر حين يكون جداله عن رأى حر وفكر حر ونية خالصة ، لأن مثل هذا الجدال من لوازم إنسانيته التى حمل أمانتها .

وقد جادل إبراهيم عليه السلام ربه فى « قوم لوط » استرحاماً ، فلم يسخط عليه الله ، بل عذره سبحانه فى حلمه على القوم الفاسقين ، وأمره أن يعرض عن جدال لا جدوى منه بعد أن سبق فيهم أمرُ الله وحق عليهم عذابٌ غير مردود بجدال أو استرحام :

« فلما ذهب عن إبراهيم الروعُ وجاءته البشرى يجادلُنا فى قوم لوط . إن إبراهيمَ لحليمٌ أوّاه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربك وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود » .

[هود : ٧٤ — ٧٦]

* * *

كذلك جادلت امرأة مسلمة ، رسول الله صلى عليه وسلم فى زوجها حين ظاهر منها ، فلما لم تجد لدى الرسول ما يفرج كربتها اشتكت إلى الله ، فسمع سبحانه قولها ونزلت فيها آيات المجادلة :

« قد سمع الله قول التى تجادلُك فى زوجها وتشتكى إلى الله واللهُ يسمعُ تحاورَكما إن اللهَ سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتِهم إنْ أمهاتُهم إلا اللائى ولَدْنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا . . . » .

[المجادلة : ١ — ٢]

ويروى عن « عمر » رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دخلت عليه تلك التى جادلته ، أكرمها وقال : قد سمع الله لها . . .

* * *

وفى السيرة النبوية خبر مستفيض عن معارضة نفر من الصحابة لصلح الحديبية على شروطه التى أقرها صلى الله عليه وسلم ، وكان من تلك الشروط « أنه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه رده إليه ، ومَن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه » .

ويروى ابن إسحاق فى « السيرة » وابن سعد فى « الطبقات الكبرى » والطبرى فى «تاريخه» ما كان من جدال عمر بن الخطاب فى شروط هذا االصلح . قالوا إنه لما تم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة نص العهد ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر الصديق فجادله فيه ، فلما لم يقره أبو بكر على رأيه ، ذهب عمر إلى الرسول فقال :

يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟

قال : بلى .

قال عمر : أو لسنا بالمسلمين ؟

قال الرسول : بلى .

قال عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال الرسول : بلى .

عندئذ سأل عمر : فعلامَ نعطى الدنيةَ فى ديننا ؟

وأجاب صلى الله عليه وسلم : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

ولم يسخط الرسول على صاحبه ، ولا أنكر عليه حق الجدال فيما لم يقتنع به . بل لعله صلى الله عليه وسلم قدر صلابة موقفه مجادلا عما يعتقد أنه حق . ثم كان عمر هو الذى راجع نفسه لما تبينت له حكمة ذلك الصلح الذى عدَّه القرآن «فتحاً مبينا» ، ومثل عمر من يبادر فيعترف بالخطأ بمثل الشجاعة التى واتته حين جادل عن رأيه فى صلابة لا يخشى لومة لائم .

و « عمر » هو الذى كتب فى "رسالة القضاء" إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه أمر القضاء ، ألا يمنعنه قضاء قضى به ثم راجع فيه نفسه ، أن يرجع عنه « فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل » .

وهو الذى أصغى إلى من جادلته بالمسجد على مسمع من المسلمين فيما نهى عنه من المغالاة فى مهور النساء ، وفيما أعلن من قراره أن يأخذ ما زاد على خمسة وعشرين درهماً فيرده على بيت المال .

قال مؤرخوه : فخرجت إليه من صف النساء امرأة تقول بأعلى صوتها على سمع الملأ المحتشد فى المسجد :

ليس لك هذا يا عمر !

فلم يزجرها ، بل وقف فسألها : ولم ؟

قالت : لأن الله تعالى يقول :

« وإن أردتم استبدالَ زوج مكانَ زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا

منه شيئًا ، أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا » .

فرجع أمير المؤمنين إلى المنبر وقال كلمته المشهورة التى بقيت ملء سمع الزمان :

« أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

* * *

ذلك هو الإسلام .

حرر عقل الإنسان وضميره ، إقراراً لحقه فى حرية العقيدة واقتضاء لما حمل من أمانة إنسانيته .

فما بال قوم يفترون على الإسلام فيدعون أنه أعطاهم حق مسخ البشرية وامتهان كرامة الإنسان بما يزعمون من أن لهم أن يقولوا فى الإسلام ما يقولون ، وأن المسلم حقًا مَن يلغى عقله فلا يفكر فيما يسمع ، ويلجم لسانه فلا يجادل فيما يقال ؟

« كبُرت كلمة تخرجُ من أفواههم إنْ يقولون إلا كذبا » .

حُـرّية الإرادة

« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى *
وأن سعيه سوف يُرى * ثم يُجزاه
الجزاءَ الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى » .

[سورة النجم]

حرية الإرادة ليست فى الواقع إلا عنصراً جوهرياً من كلٍّ لا يتجزأ ، هو الحرية الكاملة للإنسان بمقتضى اضطلاعه بحمل الأمانة .

وإذا كان شرط التكليف الاختيار — بنص عبارة ابن رشد[1] — فكيف نتصور أن يحتمل الإنسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذى هو شرطه ؟

* * *

وحين ننظر فى موقف القرآن من حرية الإرادة، نحتاج إلى أن نفرغ أولا لتدبر آيات قرآنية محكمة ، تأمر بالتوكل على الله وتفرض علينا الإيمان بمشيئته تعالى فينا وإرادته لنا ، وأن ليس لمؤمن أن يقول « إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

وهنا تواجهنا المشكلة الكبرى التى لا نعرف مشكلة أخرى حيرت مفكرى الإسلام مثلها ، أعنى مشكلة الجبر والاختيار .

بل إنها عقدة العقد ، لا فى الفكر الإسلامى فحسب ، ولكن كذلك ، فى الفكر الإنسانى بوجه عام .

لقد أطالت الفرق الإسلامية الجدل فى المشكلة ، وكأنها تضرب فى متاهة محيرة ، لا مخرج منها ولا مخلص . وكان مدار البحث فى البيئة الدينية ، حول علاقة إرادة الإنسان بالقوة الإلهية التى تدبر أمر العالم وتتصرف فيه بحكمتها، والله عالم بكل شىء ، فعمل الإنسان إنما يجرى على وفق علم الله القديم ، وهو بذلك مجبر لا مخير .

لكن الأديان فى الوقت نفسه، تقرر مسئولية الإنسان عن حسناته وسيئاته . وبهما يكون الجزاء ثواباً وعقاباً . والله عادل ، ولا يمكن أن يظلم أحداً من عباده وما ظلمهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وتوزعوا فِرَقاً شتى :

قالت « القدَرية » بالجبر المطلق ، وأن ليس للإنسان من الأمر شىء ، وإنما هو مسير بقضاء الله وقدره . وساقوا أدلتهم ، من مثل الآيات القرآنية :

(١) فى كتابه : فصل المقال .

« وكذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » .

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

« سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

* * *

ورفضت « المعتزلة » هذه الجبرية ، لأنها تلغى الكسب ، وتنفى حكمة التكليف والمسئولية ، وتجر إلى القول بأن الإنسان يعاقب أو يثاب على ما هو مجبور على فعله ، وذلك ينافى عدل الله الثابت عقلا وشرعاً بنصوص لا تحتمل التأويل . والعدل أحد أساسين لمذهب المعتزلة : أصحاب التوحيد والعدل .

ومن ثم ذهبوا إلى القول بالاختيار المطلق ، استناداً إلى أدلة عقلية ونصوص شرعية — وهم يثبتون ألا تناقض بين العقل والشرع — وتلوا من الآيات مثل قوله تعالى :

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها . ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون » .
« ولتجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون » .
« وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى » .

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها . . »
وأضافوا : إن الجبر إلى جانب مجافاته للعدل الإلهى ومنافاته للتكليف ، يجعل اللهَ خالقاً لما يقترف العبد من قبائح وسيئات ، والله سبحانه منزه عن ذلك .

* * *

وبين الطرفين المتقابلين . وقفت فرق إسلامية أخرى موقفاً وسطا :

فالشيعة ترى أنه ليس هناك جبر تام ولا اختيار تام ، مع القول بعدل الله(١) .

والأشعرية توسطت كذلك فقالت بأن للإنسان كسباً يثاب به ويعاقب عليه ، والإنسان وكسبه مخلوقان لله تعالى ، ولا وجه عندهم للكلام فى عدل الله ، لأنه

---

(١) انظر مقال « الشيعة » للأستاذ محمود شهابى أستاذ الفلسفة الشرقية فى كلية الإلهيات بجامعة طهران . وقد نشر المقال فى كتاب (الإسلام ، الصراط المستقيم) النسخة العربية ط بيروت ١٩٦١ بإشراف مورجان وترجمة الأستاذ عبد الله يعقوب .

سبحانه حر فى مخلوقاته يفعل ما يشاء ، « لا يُسأل عما يفعلُ وهم يسألون » .

وتوشك الأشعرية بهذا أن تكون قد انتهت إلى الجبرية .

* * *

ودخلت الفلسفة الميدان فزادته تعقيداً .

وحاول ابن رشد أن يوفق بين الأدلة المتعارضة[١] :

فهو يقدر الجبر من ناحية العوامل الخارجية والأحوال النفسية التى تعطل إرادة الإنسان ، كما يقدر الاختيار فيما هو متروك للإنسان وإرادته . وعنده أن الأسباب الخارجة عن إرادتنا هى القضاء والقدر .

وهذا المذهب قريب مما ذهبت إليه الفلسفة الحديثة ، من القول بالاضطرار تحت ضغط عوامل قاهرة ، من النفس ومن البيئة الخارجية ، مع تقرير للمسئولية الناتجة عما يفعله الإنسان بإرادته الحرة ، فيما عدا ما تقسره عليه الدوافع القاهرة .

والقضية كما يبدو ، لا أول لها ولا آخر ، وما تزال الحرب سجالا بين مذهبى الجبر والاختيار .

وإن كان الأخلاقيون قد قرروا مسئولية الإنسان عن عمله إلا أن يكون عمله تحت ضغط دوافع غالبة على إرادته خارجة عنها . والقوانين الوضعية على اختلافها ، تقضى بالمسئولية مع تقدير الدوافع القهرية والظروف المعطلة لإرادة الإنسان .

وبعيداً عن جدل المتكلمين وحوار الفلاسفة وقوانين المشرعين وأحكام الأخلاقيين ، أعلنت الصوفية رأيها الجهير :

« إن لله عباداً إذا أرادوا أراد » .

وهم يعدون أنفسهم أصحابَ الحقيقة ، وغيرَهم أصحابَ الشريعة . والنزاع بينهم وبين الفقهاء ذائع مشهور[٢] .

* * *

(١) فى : الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة .

(٢) انظر فيه رسالة « النزاع بين الفقهاء والمتصوفة » للدكتور عبد المحسن الحسينى .

وأيًّا ما كان الأمر . فقد انتهى الموقف فى البيئة الإسلامية إلى شيوع مذهب الجبر ، لأن الذين قالوا بالاختيار ، كانوا معتزلة أو صوفية ، وبينهم وبين الجمهور من أهل الشريعة خصومة جهيرة معلنة . وقد أعانت ظروف سياسية وأوضاع اجتماعية ، فى عصور التخلف ، على انتصار الجبر لأنه يريح من تكاليف المسئولية ، ويعفى من هم التفكير فيما كان ويكون ، ويخدر بلذة الاستسلام المطلق لكل ما تجىء به الدنيا .

وهكذا غبرت عصور ، رسّخت فينا القول بوجوب أن ندع الخلق للخالق ، وزينت لنا أن التوكل على الله ينفى السعى ، وأن طموحنا إلى حياة أفضل ينافى التسليم الواجب بما كتب علينا من قبل أن نخلق ، وأن الضيق بوضع من الأوضاع أو رفضه ، فيه ما يشبه الاعتراض على إرادة الخالق ومشيئته ، والمؤمن لا يعاند القدر .

والتصقت الجبرية بالإسلام .

وراح نفر من المستشرقين يربطون بين تخلفنا وبين هذه الجبرية فى ديننا . والذين تزيوا منهم بزى الإنصاف دافعوا عن جبرية الإسلام بأنه لم يستحدثها ولم ينفرد بها عن أديان سبقته . وزادوا فردوا الجبرية إلى طبيعة متأصلة فى العرب من قديمهم البعيد قبل الإسلام ، فيقول « جوستاف لوبون » :

« وليس فيما يوصم به الإسلام من الجبرية ما يجوز أن يُعد به محمد أكثر مما فى التوراة . . . وليس فى آى القرآن التى ذكرناها آنفًا ، من الجبرية ما ليس فى كتب الأديان الأخرى ومنها التوراة. وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون أن مجرى الحوادث تابع لسنة لا تتبدل . وكتب جميع الأمم الدينية مفعمة بالجبرية التى يسميها القدماء القدرَ الذى لا رادَّ لحكمه. ولم يكن محمد جبريًّا أكثر من مؤسسى الأديان الذين ظهروا قبله . . . والعرب كانوا جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد . فلم يكن لجبريتهم تأثير فى ارتقائهم كما أنها لم تؤد إلى انحطاطهم »[1] .

وتابعهم على ذلك متابعون من الدارسين المعاصرين ، لم يتجهوا إلى البحث فى

(١) حضارة العرب : الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر .ص ١٥٧ وما بعدها ط ٢ الحلبى بالقاهرة .

حقيقة هذه الجبرية الإسلامية . بل تلقوها على أنها بديهية لا تحتمل المناقشة . ثم كان همهم أن يردوها كذلك إلى جذور لها بعيدة قبل الإسلام ، فى الفلسفة الميتافيزيقية ، وفى طبيعة متأصلة فى العرب ، ومزاج لهم موروث من قديم الحقب والأدهار . وقد كتب « الدكتور أبو العلا عفيفى » فى الفصل المنشور له بعنوان : التأويل العقلية والصوفية فى الإسلام [1] :

« المسألة الخلقية — فى الجبر والاختيار — لها جذور فى الفلسفة الميتافيزيقية الأكثر شمولا وهى مسألة إدراك الله فى علاقته بالعالم عموماً والناس خصوصاً . ولقد أدت نظرة التشاؤم عند الساميين الذين يرون فى العالم ظلا زائلا وشيئاً لا قيمة له إلا بقدر ما يهيئ به المرء لنفسه فيه مكاناً لحياة أخرى أكثر بقاء ، إلى القول بأن الله هو صاحب القوة والسلطان المطلق على الكون والإنسان . وفى القرآن الكريم نجد آثاراً واضحة لهذا المعنى : « لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون » « يخلق ما يشاء » « فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

ثم يمضى الدكتور عفيفى بعد أن ربط هذه الجبرية فى القرآن ، بفطرة التشاؤم عند الساميين فيقول : « إن هذا جانب واحد من الصورة وهو يؤكد من ناحيته اللاهوتية سلطانَ الله المطلق على خلقه ، ويُرى من ناحيته الخلقية ، النظرية الجبرية فى أعمال المرء .

« أما الجانب الآخر من الصورة فإنه يُظهر الناحيتين وقد ارتبطت إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً . فالله الذى وُصف بأنه صاحب السلطان والإرادة العليا ، وصف نفسه بأنه عادل .

« ومن الواضح أن المذهبين المتناقضين : الجبر والاختيار ، يمكن اقتفاء أثرهما فى نزاع بين مفهومين لطبيعة الله : القوة المطلقة ، والعادل . وقد فضل المسلمون المتقدمون ، الذين كانوا أبناء الصحراء البررة ، أن يفكروا فى الله على غرار إله القبيلة ذى السلطة بغير المحدودة (؟ !) وهو المفهوم الذى اقتبسوا منه نظريتهم

---

(١) فى كتاب : « الإسلام ، الصراط المستقيم » والنص المنقول هنا يقع من ص ٢٠٤ ج ١ ط بيروت .

فى الجبر[١] . فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادل ولا منطقى . والإنسان ليس إلا أداة بين يدى ربه ، فهو يخضع لأدق قوانين الجبر ... وعُرِف باسم القَدَرية . وقد أدى بالإسلام إلى أن يوسَم بأنه دين يؤمن بأن كل شيء قضاء وقدر » [٢] .

ثم دافع عن الإسلام ، فقال إنه يعطى أكبر الأهمية لدور الإنسان فى أعماله ، وأن جذور عقيدة الاختيار – التى قال بها المعتزلة – موجودة فى القرآن نفسه « وأن الآيات القرآنية التى تؤيد مذهب الاختيار ، تفوق فى عددها كثيراً تلك التى تقول بالجبر »[٣]

ونراه هنا ، لم يضف عنصراً جديداً إلى القضية فى الهيئة الإسلامية ، اللهم إلا إقحام صورة إله القبيلة على تمثل المسلمين الأولين لله ! دون أن يحل عقدة الموقف بحال ما ، فليست المسألة مسألة عددية تُحل بأن آيات الاختيار فى القرآن أكثر من آيات الجبر .

* * *

وسنظل ندور ونحور ، فى متاهة يحار فيها الدليل ، إذا نحن وقفنا عند نقل ما قال أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار .

إلا أن نعود من نقطة البدء ، فلا نخطو خطوة فى البحث ، إلا ومعنا الدليل الذى لا نضل معه ولا نحتار .

نعود إلى كتاب الإسلام نفسه ، متحررين من الالتزام بأى قول سابق فى القضية ، ولو بدا من المسلمات البديهية .

ونحدد مفهوم الإرادة ، فنقول إنها لا تعنى مجرد الرغبة والميل ، ولا هى تقف عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه فى تصميم مهما تكن العوائق والموانع .

ومبدأ « الأعمال بالنيات » لا يعنى الإلزام بالمسئولية على مجرد النية ، بل يقدر

---

(١) بل اقتبسوها ، إن جاز أن توصف بالنظرية عند المسلمين الأولين ، من آيات قرآنية محكمة . والله هو ما عرفوه من كتاب دينهم لا ما تصوروه على غرارة إله القبيلة وقوله : « فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادى ولا منطقى » فيه جفوة ينبو عنها حس المؤمن (المؤلفة) .

(٢،٣) الإسلام ، الصراط المستقيم . المقال نفسه .

سبق العمد ويفرق بين أعمال تمت عن إرادة وتصميم ، وأخرى بدرت عن غير نية .
فالعبرة بالعمل عن سبق نية ، حتى مع وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه .

وإذ كانت الرغبة تمهيداً للإرادة ، وكان العزم من لوازمها ، فمن الضرورى أن نتدبر استعمال القرآن لكل من الرغبة والعزم، لعله يضىء لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة .

ويشهد التتبع الدقيق ، بأن الرغبة لم تأت إطلاقاً فى القرآن الكريم . مسندة أو مضافة إليه تعالى ، وإنما جاءت مادة « رغب » فى كتابه المحكم ثمانى مرات . كلها بلا استثناء ، للمخلوقين لا للخالق .

وكذلك الأمر فى العزم ، لم يأت قط مضافاً أو مسنداً إلى الله ، ولا وُصف سبحانه بأنه ذو عزم ، وإنما العزم فى كتاب الله لعباده . يطرد ذلك ولا يتخلف فى المواضع التسعة التى جاء فيها العزم فى القرآن، بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر .

والعزم فى القرآن يأتى بمعنى التصميم والنفاذ :

« ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله » .

« فإذا عزمت فتوكل على الله » .

وهذا الاستقراء ، جدير بأن يلفتنا إلى ملحظ دقيق ، هو الفرق الجوهرى بين مفهوم الإرادة حين تكون من الخالق حكماً وقضاء ، ومفهوم الإرادة حين تكون من المخلوقين رغبة واختياراً وعزماً .

* * *

وفى ضوء هذا البيان القرآنى ، نمضى فى تتبع استعماله للإرادة ، فنجدها جاءت فيه فى نحو ١٤٠ موضعاً ، كلها بلا استثناء بصيغة الفعل ، الماضى أو المضارع ، فحسب !

وعجيب أمر هذا الكتاب فى إحكام بيانه واطراد نسقه وأسرار إعجازه .
فعلى كثرة ما جاء فيه من فعل الإرادة ، لم يستعملها قط بصيغة المصدر أو أى

صفة من مشتقاته ، وإنما هى فعل لا غير .

ولا يستعمل الفعل منها بصيغة الأمر ، فى أى موضع من القرآن كله .

وهو ملحظ لم يلتفت إليه المفسرون ، ولا المتكلمون فى الإرادة ، فيما قرأت .

وأعترف بأن سره البيانى يفوت إدراكى . وأقصى ما لمحته منه بعد طول تدبر واستقراء لكل ما فى القرآن منه : أن هذا البيان المعجز لا يعرف الإرادة إلا عملا وفعلا ، فليست عنده من المجردات الذهنية التى تختص بها الأسماء ، ولا هى من الصفات التى تطلق على الأشخاص أو تضاف إليهم . فكأن العبرة فى الإرادة بالفعل ، لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء .

أما قصر استعمال فعل الإرادة فى القرآن كله . على الماضى والمضارع دون الأمر ،فالذى اهتديت إليه من سره البيانى هو أن مناط الإرادة فى القرآن الكريم . وقوع الفعل ، لا الأمر به أو الحمل عليه .

لافتاً إلى أن الإرادة لا تكون بأمر ينتفى به جوهر الإرادة من حيث هى مشيئة واختيار .

* * *

وأتابع تدبر آيات القرآن فى الإرادة ، فأجد فعلها مسنداً إلى الله تعالى ، مذكوراً أو مضمراً ،فى نحو خمسين آية ، وإلى غيره من مخلوقاته فى نحو تسعين .

وآيات إرادته تعالى . فيها النص الصريح على أنها كل شىء ، فهو تعالى : « يفعل ما يريد » سبحانه « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

على حين تقرر الآيات الأخرى . أن إرادة المخلوقين هى التى تسبق فتختار ، وبعدها تأتى إرادة الله وفق ما أرادوا . وأتلو منها قوله تعالى :

« ومَن يُرد ثوابَ الدنيا نؤته منها . ومن يرد ثوابَ الآخرةِ نؤته منها وسنجزى الشاكرين » .

[آل عمران : ١٤٥]

« من كان يريدُ ثوابَ الدنيا فعند اللهِ ثوابُ الدنيا والآخرةِ وكان الله سميعاً بصيرا » .

[النساء : ١٣٤]

« من كان يريد حرثَ الآخرة نزد له فى حرثِه ، ومن كان يريد حرثَ الدنيا نؤتِه منها وما له فى الآخرة من نصيب » .

[الشورى : ٢٠]

« ومن كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتهَا نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون » .

[هود : ١٥]

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يَصلاها مذموماً مدحورا » .

[الإسراء : ١٨]

« يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إنْ كنتن تردنَ الحياة الدنيا وزينتَها فتعالينْ أمتعْكُن وأسرحْكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

[الأحزاب : ٢٨]

فلمن الإرادة : أللخالق أم الإنسان ؟

لا نملك أن نأخذ ببعض آيات الإرادة فى القرآن ونعرض عن بعض .

فهل نقول إن القرآن يقرر الجبر ، كما يقرر الاختيار ، هكذا على الإطلاق فيهما ، فنتورط فى القول بتناقضه واختلافه ، حاشاه ؟

أو نرجح الاختيار لمجرد ملحظ عددى ، نسجل به أن آيات الإرادة الإلهية نحو خمسين ، يقابلها نحو تسعين آية ، الإرادة فيها للمخلوقات ؟

إننا إن فعلنا ، ظلت العقدة عصية ، وعدنا نخبط فى المتاهة دون أن نصل إلى طمأنينة واقتناع .

* * *

وإنما تنحل عقدة الموقف ، فيما أرى ، إذا نحن التفتنا إلى ما هدانا إليه بيان القرآنى ، من أن مفهوم إرادة المخلوق فيه ، غير المفهوم من إرادة الخالق :

إرادتنا كسبية ، مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير ، وليست كذلك إرادة الله حيث لا يجوز عليه تعالى أى عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر فى علم التوحيد .

ويؤيده ما قدمنا من استقراء لآيات القرآن ، حيث لا يسند إليه تعالى عزم أو رغبة ، أو ما شابه ذلك من الصفات المحدثة والأعمال الكسبية .

وإنما تُفهَم إرادة الله ، فى القرآن كله، على أنها حكم نافذ وقضاء مبرم ، وليست كإرادتنا عزماً على أمر أو سعياً وراء مراد نصمم على إنفاذه :

« إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون » .

[يس : ٨٢]

« إنما قولُنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

[النحل : ٤٠]

وبهذا الفهم الواعى للفرق بين فعل الإرادة حين يسند إليه سبحانه ، وحين يسند إلى مخلوقاته ، نتدبر الآياتِ التى حكَّمَت الإرادةَ الإلهية العليا فى مصاير الأمم والأفراد ، فنراها ألقت عليهم مسئولية ما صاروا أو يصيرون إليه ، بشاهد صريح من سياقها .

فآية الإسراء : الإرادة الإلهية فيها أمر نافذ ، وقد جعلت الترف بما هو ذريعة بغى وفساد ، مسئولا عن سوء المصير . وهى مسبوقة بآية وزر الضلال ومثوبة الهدى :

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ١٦

وآية الأحزاب ، جعلت إرادة الله حكماً نافذاً لا مفر منه على من خانوا مسئولية العهد :

« ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لا يُولون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من اللهِ إنْ أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دونِ اللهِ وليّاً ولا نصيرا » ١٦

وآية هود ٣٤ :

« ولا ينفعكم نصحى إن أردتُ أن أنصحَ لكم إن كان اللهُ يريد أن يغويكم

هو ربكم وإليه ترجعون » .

هذه الآية التى طالما واجهتنا حينما قيل بجبرية الإسلام ، لا يجوز أن تؤخذ مبتورة من سياقها فى الملأ الذين كفروا من قوم نوح وقالوا لنبيهم : « ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلُنا بادىَ الرأىِ وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين » .

وقد نصح لهم نوح فضاقوا بنصحه : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالَنا فأتِنا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى . . . » الآية .

وآية يس ، قد أبطلت شفاعة آلهة تتخذ من دون الله أرباباً هيهات أن تنقذ من حكم الرحمن :

« أأتخذُ من دونِه آلهة إنْ يُردنِ الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونِ . إنى إذن لفى ضلال مبين » ٢٣

ومثلها آية يونس :

« ولا تدعُ من دونِ اللهِ مالا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسْك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُردْكَ بخير فلا رادَّ لفضلِه » ١٠٧

وآية التوبة :

« لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنُك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم فهم فى ريبِهم يترددون . ولو أرادوا الخروجَ لأعدّوا له عُدةً ولكنْ كرِه اللهُ انبعاثَهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالَكم يبغونكم الفتنةَ وفيكم سماعون لهم ،والله عليم بالظالمين» .

الآية جعلت تثبيط الله حكماً مبرماً على المترددين فى الجهاد عن ارتياب فى قلوبهم ، فكره الله انبعاثهم مع المؤمنين حتى لا يكونوا ذريعة فتنة .

وآية الرعد التي جعلت إرادة الله بقوم سوءاً حكماً لا مرد له :

« وإذا أراد اللهُ بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال » .

مسبوقة بقوله تعالى فى صدر الآية نفسها :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ١١

ومثلها آية الأنفال فيمن كفروا بآيات الله :

« فأخذهم اللهُ بذنوبهم إن اللهَ قويٌّ شديدُ العقاب . ذلك بأن اللهَ لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميعٌ عليم » ٥٣

وقوله تعالى فى آية هود :

« إن ربَّك فعَّال لما يريد » .

جاء حكماً نافذاً على أمم وثنية بائدة ، ضلت فأخذها الله بظلمها :

« وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتُهم التى يدعون من دونِ اللهِ من شيء لما جاء أمرُ ربِّك وما زادهم غير تتبيب * وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذَه أليم شديد . . . »

إلى قوله تعالى :

« فأما الذين شقوا ففى النارِ لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربك إن ربَّك فعال لما يريد » ١٠٧

* * *

وأحتاج هنا إلى استطراد أشير فيه إلى مقال نشره الأستاذ الجليل « الدكتور مصطفى الزرقا » [1] تعقيباً على محاضرة لى فى « القرآن وحرية الإرادة » ألقيتها بالكويت فى نوفمبر عام ١٩٦٥ .

لقد وقف الأستاذ عند تخريجى لآيتى هود ويس وأمثالهما فقال : « إن هذه الآيات بقيت محل تساؤل : كيف يمكن توفيقها مع هذا التأويل الجديد للدكتورة بنت الشاطئ بصورة يزول منها إشكال الجبرية : فمن ذلك قوله تعالى على لسان نوح

(١) فى مجلة الإيمان المغربية (ديسمبر ١٩٦٧) ثم فى مجلة الوعى الإسلامى الكويتية (مارس ١٩٦٨)

لقومه : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم »
واضح أن مناط احتجاج الجبرية إنما هو فى تسليط الإرادة الإلهية على الإغواء وتعلقها به . فلو كان متعلقها غير الإغواء من عذاب أو سوء عاقبة ، لصح للسيدة تأويلها..

« وكذلك آية يس « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تُغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون » السياق فيها هو موازنة بين قدرة قادر وإرادته المطلقة ، وعجز العاجزين . . . فيبقى فى ظاهر الآية متمسك للجبرية فى أن ما يقع للناس من خير وشر ونفع وضر ، إنما هو بإرادة الله تعالى التى لا محيص لهم منها » .

أقول : لا وجه عندى لهذا التساؤل ، فلم أقل إن إرادة الله حين تأتى حكماً مبرماً تقتصر على الجزاء والتعذيب ،وإنما يصدق حكم الإرادة النافذة على الإنسان بما أراد لنفسه من خير أو شر ، من هدى أو ضلال :

« فأما من أعطى واتقى . وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى » الليل .

وعلى هذا يصح تخريج كل آيات الإرادة الإلهية فى تعلقها بالنفع أو الضر وبالغواية أو الهدى ، تيسيراً لليسرى أو تيسيراً للعسرى. والله قد هيأ للإنسان وسائل البصر والتمييز فجعله سميعاً بصيراً :

« إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

« ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين » .

كما صح تخريجها فى تعلقها بالجزاء والعقاب . حكماً عادلا وجزاء وفاقاً :

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وأقدر مع ذلك ما رآه الأستاذ الدكتور ، من أن هذه الآيات جاءت كلها فى مقام التعبير عن قدرة الله المطلقة فى ذاتها ، وليست تعبيراً عن واقع . ولذا جاءت فى صورة الشرط : « إن يردن الرحمن بضر . . » « إن كان الله يريد أن يغويكم » « فالمراد بيان أن قدرته تعالى وإرادته لا يستطيع أحد أو شىء أن يحدّ من سلطانهما حتى لو أراد الله أن يغوى أحداً أو يظلمه ... لأن قدرته تعالى وإرادته مطلقتان كما أن علمه محيط . وهذا لا يدل على أن الله تعالى يظلم فعلا أو يلحق بأحد ضرراً دون

استحقاق . فهو تعالى قادر على العدل والظلم ولكنه لا يغوى ولا يظلم ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه . وذلك كما تقول إن فلاناً يستطيع أن يفعل كذا وكذا من خير أو شر ، ولو أراد أن يقتل فلاناً لفعل . . . ولا يفهم أحد من ذلك أنه فعل أو يفعل ما يستطيعه » .

وأضيف إلى هذا الملحظ الهام ، ما يقرره القرآن الكريم من ثبات السنن الكونية مع قدرته تعالى على نقضها . فلا تناقض بين قوله تعالى : * فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا * * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون *

وبين الآيات المثبتة قدرة الله تعالى على نقض سنن الكون وقوانين الحياة . وقد جاء بها البيان القرآنى معلقة على شرط المشيئة الإلهية بحرف « لو » المفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، أو مشروطة بحرف « إنْ » المفيد تعذر الوقوع :

« وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً » .

* * *

وعرض الأستاذ الدكتور بعد ذلك لآيات :

الأنعام ١٠٨ : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » .

« ١١١ : « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله »

« ٥٧ : « قل إن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » .

ورأى فيها مشكلة على ما سبق لى من تأويل ، إذ أسند فيها أصل السلوك الصالح أو الخاطئ من هداية أو ضلال ، إلى فعل الله تعالى ومشيئته .

ولا أراها مشكلة ، فآية الأنعام جاءت فى سياق من أصروا على الضلال عمداً وصحت إرادتهم على الشرك والعمى والعناد ، بعد تقرير مسئولية الإرادة :

« قد جاءتكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درستَ ولنبينه لقوم يعلمون * اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا وما

جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْوا بغير علم ، كذلك زينّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » .

واضح أن الآية فى سياق تقرير حرية العقيدة ، وهى متلوّة مباشرة ، بآيات عنادهم وإصرارهم على الضلال ولو نزلت إليهم الملائكة وكلمهم الموتى :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُنّ بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم بأنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » . (١٠٤ : ١١١)

وآية الرعد ، تمامها :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزِل عليه آية من ربه . قل إن الله يُضل من يشاء ويهدى من يشاء ويهدى إليه من أناب » ٢٧ .

واضح كذلك أنها تربط الضلال بعناد الكفار ومماراتهم الفاحشة ، كما تتعلق هداية الله فيها بمن أناب .

وبعدها فى السياق نفسه ، تتقرر مسئولية الكسب ويتعلق إضلال الله بمن حق عليهم العذاب :

« ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب * أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد * لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » ٣١ : ٣٤ .

وآخذ بما ذهب إليه الأستاذ الجليل من « أن تزيين الأعمال يمكن فهمه بمعنى تحويطها بما يجذب إليها ويغرى بها من متع وملذات ومنافع عاجلة وانفلات من القيود الملجمة ، فى مقابل ما وضع الله فى الإنسان من قوة العقل والتمييز والتبصر فى العواقب .

وأن مشيئة الله تتعلق بعدم الحيلولة بين مخلوقاته وبين اتباع طريق الهدى أو الضلال . وتتحقق مشيئته بأن لا يريد الله تعالى استعمال قدرته فى صرفهم وإن كان قادراً على ذلك « فهذا القدر من التخلية بين المكلف والمنطلقات التى أمامه فى الخير أو الشر ، يدخل فى حدود المشيئة متى كان صاحب هذه المشيئة قادراً على الحيلولة »

ثم أضيف : إن تزيين الله للناس أعمالهم وحب الشهوات . هو أيضاً من قبيل الابتلاء الذى يمارس فيه الإنسان إرادته تقريراً لتبعة الكسب والسعى . وإلزاماً بما يتعلق بهما من اهتداء أو ضلال ، ومن ثواب أو عقاب :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

* * *

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من موقف القرآن من حرية الإرادة فأقول :

إننى لا أذكر فيما قرأت من تاريخ الإسلام أن الجدل فى حرية إرادتنا ظهر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو عصر خلفائه الراشدين، بل لست أعلم أن المسألة شغلت جيل الصحابة وقد تلقوا القرآن الكريم بروح نقية ، فلم يفهموا من إرادة الله إلا أنها حكم نافذ وقرار عادل ، لا يلغى الإرادة الكسبية للإنسان ، ولا يعفيه من تبعة اختياره الحر لعقيدته وعمله « ولو شاء ربك لآمَنَ مَنْ فى الأرض كلهم جميعًا ، أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » .

وإنما ثار الجدل فيها فى العصر العباسى وقد بَعُدَ العهد بالفطرة العربية النقية والفكر الإسلامى الصافى ، وشابت فهمَ المسلمين لكتابِ دينهم شوائب دخيلة ، أضافت إلى الإسرائيليات والمذهبيات والأذواق الأعجمية ، ما حملته الشعوب الطارئة على العربية والإسلام من تراثها الفكرى والروحى ، فكانت مشكلة الجبر والاختيار من أعقد المشكلات التى بلبلت الأفكار وحيرت الألباب لشدة ما تدافعت فيها الأقوال وتصادمت الأدلة .

ومع أن الفرق الإسلامية كلها عالجت المشكلة على أساس من النظر فى القرآن والسنة ، إلا أنها ما لبثت أن خرجت من ذلك النطاق ، ثم تلقفها من

أرادوا أن يتخذوا الدين أداة لتبرير الأوضاع . فتسلطوا على الجماهير يُلِحُّون على وجدانها المؤمن بأن تدع الخلق للخالق ، ويحذرونها من غضب الله إن هى حاولت أن تغير واقعاً أو تطمح إلى شىء من الحق والحرية والعدل . فكل شىء مسير بقضاء الله وقدره . لا حيلة لمخلوق فيه . وكل ما نلقى مكتوب على الجبين لا مفر منه ولا مرد له .

فكان ما كان من ذيوع القول بجبرية الإسلام .

وهذه آيات القرآن . تهدينا إلى أن العزم لنا وحدنا ما بقينا فى الدنيا ، والإرادة الكسبية إرادتنا . وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا ما نختار محتملين مسئولية هذا الاختيار الحر .

أما الإرادة الإلهية فحكم نافذ ومصير محتوم . وإذا كان الله سبحانه يحكم علينا بما نريد لأنفسنا فليس ذلك إلا تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيداً إلهيًّا لحرية إرادتنا وإلزاماً عادلا لنا بمسئوليتها .

* * *

وتلخيصاً للموضوع أقول ، إن القضية إذا أريد فهمها من القرآن . فلا يجوز أن نأخذ ببعض آياته فى الإرادة ونعرض عن بعض . فيذهب كل فريق بما يؤيد رأيه . وإنما نستقرئ كل آيات الإرادة ، فتهدينا إلى أن مفهوم إرادتنا فيه غير مفهوم إرادة الخالق : إرادتنا كسبية حرة فيما نعمل . وإنما الجبرية فى حتمية المصير لما أردناه باختيارنا ، والحكم الإلهى العادل فى إلزامنا بتبعة اختيارنا الحر ، إلزاماً جبريًّا لا مفر منه ولا مهرب .

وبغير هذه الحرية . تنتفى حكمة إرسال الرسل ، وتتعطل قدرة الإنسان على حمل تكاليف أمانته فى هذه الحياة الدنيا .

مَصِيرالإنسَان

الوجُود.. والعَدَم

« وقالوا ما هى إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر . ومَا لَهم بذلك من علم إنْ هم إلا يظنون » .

[سورة الجاثية]

إن تكن حياة الإنسان لا تعدو هذه الرحلة العابرة من المهد إلى اللحد ، فما أبشعها من مأساة تدعو إلى القنوط وتخنق فى الأحياء منا إرادة الحياة !

ومن قديم ، حاولت البشرية قبل عصر الأديان أن تقاوم فكرة العدم ، وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود لا تكفى لحماية الإنسان من رفض حياة تنتهى حتماً بهذا المصير الرهيب .

ولعلها فى عصورها البدائية ، كانت مدفوعة إلى هذه المقاومة بغريزة البقاء . أو محكومة بالسنن الكونية التى تريد لهذه الحياة أن تستمر .

ذلك لأن رفض الحياة يعوق استمرارها . ويغرى البشرية بالتمرد على ما تلقيه عليها من أعباء فادحة ثقال ، وبخاصة فى تلك العصور الخالية التى عاشتها البشرية فى صراع منهك مع قوى الطبيعة العاتية وأسرار الكون الملغزة ، تجد وراء كل خطوة تخطوها عدواً خفياً أو ظاهراً يترصد لها . دون أن تملك وسيلة للبقاء سوى الحرص على البقاء .

وأرهف ذلك الصراع المضنى طاقة كامنة فى البشرية . ربما أدهشت الإنسان نفسه وهو يواجه أعداءه أعزل من أى سلاح إلا ما يثيره التحدى فى كيانه من رغبة النضال دفاعاً عن وجوده . فمضى يتابع نضاله الباسل فى المعركة فكلما حقق انتصاراً فى جولة من جولاتها ازداد قدرة على مواصلة الصراع بمقدار ما أضاف إلى جعبته من أسلحة معنوية ومادية . ومن ثم قوى تشبثه بالحياة بعد أن فهم بعض ألغاز الوجود وذلل بعض العناصر الكونية لخدمته . فلم يعد حرصه على البقاء مجرد استجابة غريزية أو خضوع لسنة كونية فحسب . بل صار كذلك يستبشع فكرة العدم لأنها تدمر فيه إرادة الكفاح ، إذ لا معنى لذلك الدأب المضنى فى تحقيق وجوده وفرض سلطانه على الكائنات ، والموت يتربص به ليحسم ذلك العبث العقيم بغمضة عين لا يقظة بعدها أبدا !

*

وكانت عقيدة البعث فى الديانة المصرية القديمة ، محاولة مستبسلة لمقاومة فكرة

العدم بعد الموت . وهذه العقيدة هى التى هيأت لإنسان وادى النيل قدرته المبدعة على بناء الحضارة البشرية الأولى .

على حين التمس إنسان وادى الرافدين القديم — الذى يسامى المصرىّ عراقةَ التحضر — أمله البعيد ، فى تجدد الحياة الإنسانية يتمثل فى بعث دورى متجدد . بعد طول تأمل فى دورة الفصول الأربعة . حيث تتجدد الحياة فى كل ربيع وتنضج فى الصيف بعد أن تذبل فى الخريف وتموت فى الشتاء . وإن تكن المعتقدات السومرية ، فيما نعلم ، قد أصرت على قصر الخلود على الآلهة ومن تصطفيهم من البشر الصالحين . ولعل « نوحًا » وحده ، هو الذى آثرته السومرية بهذا الخلود لأنه أنقذ البشرية من الطوفان ، على حين أبت الملحمة البابلية « جليجامش » الخلود على ذلك الملك البطل المصلح ، لكونه من البشر . ومنح مجمع الآلهة « الراعى تموز » خلوداً دوريًّا مؤقتًا ، استجابة لشفاعة حبيبته الإلهة « عشتار » فكان تموز ، على ما تحكى الأسطورة ، يحيا فى أول الربيع كل عام ، فتزدهر الأرض وتنتعش الكائنات الحية ويغنى الرعاة ، ثم يموت فى آخر الصيف إيذانًا بذبول الحياة وموتها .

كما كانت عقيدة التناسخ عند الهنود ، محاولة أخرى للفرار من فكرة الفناء الأبدى بالموت .

وأطال الفلاسفة الأقدمون التأمل فى « الكون والفساد » فظهر القول بخلود الروح تعزية لهذا الإنسان عن بلى جسده .

على حين اتجه الشعراء وأصحاب الفن ، إلى التماس العزاء من الأمل فى بقاء ما يخلقون ويبدعون ، بعد أن يرحلوا عن الدنيا إلى غير عودة أو مآب . . .

* * *

وجاء عصر الأديان السماوية المعروفة لنا ، والبشرية تناضل فى سبيل استنقاذ إرادة الحياة من التدمير الذى يحيق بها إن هى استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتها الأديان بحياة أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدمت يداه فى الحياة الدنيا .

والبشرى مصحوبة بنذير . . .

وقد صك النذيرُ سمعَ عُبادِ الدنيا من عهدِ ما بعد الطوفان ، فاستهزئوا برسول السماء إليهم :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا . ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

[المؤمنون : ٣٣ — ٣٧]

لكن البشرية وجدت فى البشرى بحياة ثانية بعد الموت ، ما يغريها بمواصلة الكفاح ويقوى عزيمتها فى الصراع بين الخير والشر ، وما يعطى حياتها الأولى الفانية ، معنى وقيمة تستحق من أجلهما أن تعاش .

ومضت الحياة لا تتوقف . . .

وتابع الإنسان نضاله الدائب من أجل انتصار الحياة .

واستراح المؤمن بالدين إلى رفض فكرة العدم التى تجعل وجوده فى الدنيا عبثاً عقيماً ومحنة لا تطاق . كما تجعل هموم رحلته الدنيوية وتكاليفها عبئاً باهظاً لا يحتمل . وتشد بصره ووجدانه وفكره إلى الحفرة التى تنتظره فى نهاية المطاف . رمة عفنة ينهشها الدود ويعبث بها البلى . . .

وعلى الأمل الموعود فى اللقاء بالعالم الآخر . هان على الأحياء منا أن يودعوا أحبابهم فى الحفرة الموحشة . وأن يطيقوا بعدهم محنة العيش إلى أن يحين الأجل المحتوم فيلتئم الشمل الممزق . ولولا هذا الرجاء لألقى بهم اليأس فى جحيم من العذاب لا نجاة منه إلا بالفرار إلى الموت .

* * *

والأديان السماوية قد ختمت بالإسلام الذى أعلن أنه مصدق لها . وقد استخلص الجوهر النقى للدين الواحد الحق ، مما شابه من رواسب عصور السحر والوثنية وعبادة الأبطال . ففى كتاب الإسلام إذن ، نستطيع أن نلتمس الكلمة الأخيرة للأديان ، فى مصير هذا الإنسان الذى خاض معركته الطويلة المضنية من أجل الحياة . وأعياه مع ذلك أن يتحدى قانون الموت القاهر النافذ ، الذى يسرى

على أفضل الرسل وأنبه العباقرة وأنبغ الإطباء وأشجع الأبطال وأعتى الجبابرة ، كما يسرى على أضأل حشرة هينة هائمة فى الكون الواسع العريض . . .

والإقناع بحياة أخرى بعد الموت ، مسألة بالغة الصعوبة ، إذ يشق على الإنسان أن يتصور رجعة الحياة بعد أن تفنى الأجساد . والذين سبقونا إلى المقابر لم يعد منهم عائد يحدثنا عما هناك ، والعلم عاجز حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة التى لا تزال خارج نطاق اختصاصه ، وكل ما يرجف به المرجفون من قول بالعدم المطلق بعد الموت ، لايعدو أن يكون فى حساب العلم نفسه رجماً بالظن . وصدقت الآية القرآنية :

« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم إنْ هم إلا يظنون » .

[الجاثية : ٢٤]

وإذا كانت الأديان تكل المؤمن إلى إيمانه الذى يفرض عليه التصديق بما جاء به الرسل من أنباء الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، فإن كتاب الإسلام الذى خُتمت به رسالاتُ السماء إيذاناً بأن البشرية بلغت رشدها ، يقدر حاجة الإنسان إلى برهان يقنعه بالحياة الأخرى . ويتوقع جدله فى هذه المسألة الغيبية : « وكان الإنسانُ أكثر شىء جدلا » .

وقد سجل القرآن ما أثير من جدل حول البعث ، فتلا علينا شبهات الذين أنكروه . ثم لم يدعها تمر مكتفياً بأن يكل الإنسان إلى إيمانه ، بل حرص على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذى تطمئن إليه الإنسانية دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما تهيأ لها من إلهام الفطرة وهدى البصيرة ووسائل التأمل والنظر ، لكيلا يكون الاطمئنان وقفاً على زمان بعينه أو مرتبطاً بظروف وأحوال خاصة لا تتاح لكل إنسان .

وأحاول فيما يلى ، أن أتدبر ما جاء به البيان القرآنى من جدل فى ذلك المصير الذى هو مشغلة الفكر الإنسانى منذ الأزل وإلى الأبد . . .

جَدَل فى البعث

« أوَ لم ير الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أولَ مرة وهو بكل خلق عليم » .

[سورة يس]

« يا أيها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُفَ الطالبُ والمطلوب » .

[سورة الحج]

يبدو أن البشرية على طول ما جاهدت مستبسلة للفرار من فكرة العدم ، لبثت على مدى الحقب والأدهار غير مطمئنة إلى تلك المحاولات القديمة التى التمست بها الأمل فى ألا يكون الموت هو النهاية الأخيرة لقصة الإنسان . . .

وفى أعماقها ، كانت الحيرة تضنيها وهى تحتال بوسيلة أو بأخرى على التدبير لما تعلقت به من رجاء فى عودة الحياة بعد الموت ، بمثل تحنيط جثث الموتى وتزويد قبورهم بكل ما تعلقوا به من متاع دنياهم الفانية . ونحت تماثيل للبشر الفانين ، تقاوم الفناء . . .

تبريراً لصراعها المرير فى رحلة الدنيا ، وحماية لإرادة البقاء فى الأحياء .

وما كان أحراها أن تتخلص من ذلك الهم الذى أرقها ، حين جاءتها رسالة السماء الأولى فمنحتها الأمل المرجو الذى ما تخلت عنه قط منذ بدأت حياتها على هذه الأرض !

لكن بقية من الشك والحيرة ظلت تساورها وهى تصغى إلى وعد السماء ، فتحرمها طمأنينة القلب وراحة العقل . وإذا كانت قد تطلعت إلى ما يمنحها هذه الطمأنينة ، فعذرها أن الأمل البعيد كان عزيزاً وغالياً ، بقدر ما كان تصور تحققه صعباً وعسيراً !

وتتابعت الأديان تؤكد وجود الحياة الأخرى ، حتى جاء الإسلام فلم يعد الإنسان ينتظر رسالة جديدة تضيف كلمة إلى ما جاء به الدين عن الحياة الأخرى .

ومن ثم حرص كتاب الإسلام على الاستجابة إلى ما ظلت البشرية تلتمسه من اقتناع بإمكان تحقق أملها البعيد ، مقدراً ما فى طبيعة الإنسان الرشيد الواعى ، من ميل إلى الجدل ، ومقرراً حقه فى أن يطلب ما يطمئن به قلبه ولو كان متعلقاً بمسألة غيبية . وللإنسان أسوة فى إبراهيم عليه السلام ، وقد تلا علينا القرآن من حديثه :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

ولم يجرح هذا السؤال إيمان إبراهيم. ولا حرمه شرف اصطفائه نبيًا وخليلا . . .

* * *

فماذا قدم كتاب الإسلام إلى الإنسان لكى يطمئن قلبه إلى تحقق أمله فى حياة أخرى تجعل لنضاله فى الدنيا قيمة ومعنى ؟

أو بتعبير آخر :

ماذا قدم الدين فى ختام رسالاته ليريح البشرية مما طالما أضناها من حيرة وقلق وهى تقاوم فكرة العدم وتتشبث بالرجاء فى ألا يكون وجودنا فى الدنيا عبثًا ينتهى بضجعة القبر ؟

لقد أثبت كتاب الإسلام ما كان من جدل الأولين حول البعث . ودفع الشك فيه بالمنطق الذى يثبته النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعى . دون أن يحتاج الإنسان فيه . كما أشرت من قبل ، إلى ظروف خاصة أو وسيلة من وسائل المعرفة الخارجية ، إن أتيحت لعدد من الناس فى بيئة معينة أو عصر خاص . فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية .

وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام . ما نراه فى الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها . وما نبصره بأعيننا من خروج الحى من الميت وخروج الميت من الحى ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلى أو المستحيل العادى :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير » .

[فصلت : ٣٩]

« يُخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميتَ من الحى ويحيى الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرجون » .

[الروم : ١٩]

(وانظر معها آيات : البقرة ١٦٤ ، النحل ٦٥ . الجاثية ٥ ، فاطر ٩ . الفرقان ٤٩ ، العنكبوت ٦٣ . يس ٣٣ ، ق ١١ . وكذلك آيات : آل عمران ٢٧ ، الأنعام ٩٥ . يونس ١٩ ، الحديد ١٧) .

* * *

وليس هذا فحسب ، ما يقدمه الدين فى كتاب الإسلام إلى الإنسان ليطمئن قلبه إلى إمكان البعث ، بل إنه كذلك يضع أمام بصره و بصيرته ، وحسه ووجدانه ، آية القدرة الإلهية المعجزة فى خلق الإنسان أول مرة ، فلن يعييها أن تعيده مرة أخرى ، وذلك أهون .

وتوشك الآيات القرآنية فى خلق الإنسان أن تكون فى الغالب الأعم موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ، ما يأتى فى سياق الرد على الكافرين فى هزئهم بنذير الآخرة :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابـًا ، ذلك رجع بعيد . . . »

« أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لَبْس من خلق جديد » .

[ق : ٣ — ١٥]

« إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابـًا وعظامـًا أئنا لمبعوثون . أوَ آباؤنا الأولون . . . »

« ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تَذكّرون » .

[الواقعة : ٤٥ — ٦٢]

« وقالوا أئذا كنا عظامـًا ورُفاتـًا أئنا لمبعوثون خلقـًا جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقـًا مما يكبُر فى صدوركم فسيقولون مَن يُعيدنا ، قل الذى فطركم أولَ مرة . . . »

[الإسراء : ٤٩]

ومنها ما يأتى دفعاً لحيرة الإنسان فيما يشغل باله من أمر تلك الحياة الآخرة التى أكدتها الأديان ، وما يجهده من التفكير فى تصور إمكان تحققها :

« ويقول الإنسانُ أئذا ما مت لسوف أخرَج حيـًّا . أوَ لا يذكرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئا » .

[مريم : ٦٦]

« أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمَع عظامَه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

« أيحسب الإنسانُ أن يُترك سُدًى . ألم يكُ نطفةً من مَنِيٍّ يمنى . ثم كان علقةً فخلق فسوّى . فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحييَ الموتى » .

[القيامة]

« فلينظر الإنسانُ ممّ خُلق . خُلق من ماء دافق . يخرجُ من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر » .

[الطارق]

« أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسيَ خلقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميم .. قل يحييها الذى أنشأها أولَ مرة وهو بكل خلق عليم » .

[يس : ٧٧]

وكلها آيات مكية .

ومعها من العهد المكى كذلك ، آيات : الروم ٦ ، ٢٧ . والسجدة ٦ ، ١٠ والمؤمنون ٣٣ ، ٨١ ، والصافات ١٦ ، ٥٣ .

وبعدها فى العهد المدنى ، نزلت آية الحج ، والخطاب فيها للناس كافة :

« يا أيها الناسُ إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مُخَلَّقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوفّى ومنكم مَن يُردُّ إلى أرذلِ العمرِ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئاً ، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

بهذا المنطق ، يقدم البيان القرآنى إلى الإنسان أن الآيات الشاهدة على أن الذى خلقه أول مرة ، قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى ، فإذا شق على الإنسان أن يتصور حياة بعد موت ، فليتأمل فى الكون حوله ، يرَ شواهد من الواقع الحسى ، فى الأرض تحيا بعد موت ، وفى الكائنات الحية تخرج مما يبدو لنا هامداً ميتا .

* * *

لكن هذه الآيات إذا أقنعت الإنسانية المتدينة التى تؤمن بخالقها ، فقد بقى هناك مجال لما يثير الملحدون من جدل فى أن الله هو الذى خلق الإنسان أول مرة !

ولا يسكت القرآن عن هذا ، بل يقدم برهانه الذى يجلو الريبة ويفحم المنكر.

والسؤال الذى عرضه كتاب الإسلام بصيغة التحدى لكل منكر أو مرتاب ، هو :

« أم خُلقوا من غيرِ شىء أم هم الخالقون » ؟

ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثل الصادع وساقت البرهان المفحم :

« يا أيها الناسُ ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دونِ اللهِ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبْهم الذبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ، ضعُف الطالبُ والمطلوب » .

ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام هذا المثل ، نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان ، ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع نضاله الباهر العجيب فى كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، إلى أن غزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر .

وما يزال المثل القرآنى يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء .

وما يزال على الذين غرهم الغرور بما حقق إنسان العصر الحديث من معجزات العلم ، أن ينسخوا ذلك المثل ، بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقذوا شيئًا سلبتهم إياه هذه الحشرة الضيئلة التى تقتلها ذرة من هواء مشبع بمبيد الحشرات وتستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته ، بلمسة هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت .

سيقولون : وماذا عن الجهود الجادة المبذولة لاستنقاذ الحياة من الموت ؟

ولهذا حديث خاص يلى . . .

العَـرَض .. والجوْهَـر

« فأمَّا الزبَـدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناس
فيمكثُ فى الأرض ، كذلك يضرب اللهُ الأمثال » .

[سورة الرعد]

ماذا عن الجهود الجادة المبذولة لمحاولة استنقاذ الحياة من الموت ؟

ليست المحاولة فى ذاتها جديدة ، فالبشرية من قديم تحاول أن تطيل فى أمد الرحلة الدنيوية بكل ما أطاقت من جهد وما أسعفها من وسائل .

وقد احتالت على ذلك فى عصور بدائيتها بالضراعة إلى آلهتها وتقديم القرابين إليها . حتى إذا بزغ عصر الإنسان ، حلّ الطب والعلاج محل السحر والرُّقَى ، واستبدل الدواء بالتعاويذ والقرابين . وحقق الإنسان انتصاره الرائع فى هذا المجال بحيث أمكنه أن يهتدى إلى سر كثير من الأمراض المستعصية وأن يكتشف دواء لها.

ويغريه اليوم الأمل فى مزيد من النصر ، بعد أن توصل إلى اختراع « قطع غيار » لبعض ما يتلف من أجهزة الجسم البشرى ، والأنباء تحمل إلينا بين حين وآخر ،عجيب المحاولات المبذولة فى هذا الميدان . ولعل من أعجبها تجارب عمليات نقل الأعين والقلوب والكلى ، ثم تلك المحاولات التى جرت فى روسيا لإنقاذ عالمها الذرى الكبير من موت محقق ، وقد بدا لأحد الكتاب الغربيين أن يصف هذه المحاولة بأنها انتصار على الموت .

والواقع أن ما يبدو لنا انتصاراً على الموت ، ليس فى حقيقة الأمر سوى إنقاذ للحياة حتى يحين الأجل المحتوم . وعند ئذ لا يجدى طب ولا دواء ،كما لم تجدِ من قبل ضراعة وقربان، ولا سحر ورقية . ولا تستطيع جهود أطباء العالم مجتمعين، أن تستبقى الحياة لحظة واحدة إذا ما جاء الأجل :

« فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولنا أن نعد كل تقدم فى الطب والعلاج انتصاراً للحياة ، بمعنى أنه يحميها من عذاب الألم ومذلة الضعف طالما بقيت فى العمر بقية لم تستنفد ، وبمعنى أنه يستبقى لهذا الإنسان طاقته الحيوية ما عاش .

وليس بمستبعد أن تثمر الجهود العلمية والطبية ، فيتضاعف عمر الإنسان ، وليس بمستبعد كذلك أن تصير الشيخوخة مرضًا يعالج فيحفظ للإنسان فى أرذل مراحل العمر قدراً من الحيوية يستطيع به أن يمارس الحياة ويتذوقها .

لكن . . . هل يعنى انتصار الحياة الانتصار على الموت ؟

فى مسمعى صدى باق من قول شاعرنا الجاهلى الشاب « طرفة بن العبد » :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غدا ، ما أقرب اليوم من غدِ !

فليت شعرى هل يستطيع عباقرة عصر الفضاء أن ينقضوا تلك المعادلة الرهيبة : « الموت : أعداد النفوس » التى قالها شاعرنا القديم بفطرته البدوية المرهفة ؟ هيهات . . .

*

ولم يكن الدين فى حاجة إلى أن يقنع الإنسان بحقيقة الموت الصارمة ، ومع ذلك نرى كتاب الإسلام يُلحّ فى تقريرها ، وكأنه بذلك يقدر غفلة الإنسان فى نشوة الحياة الدافقة وضجيج صراعها الصاخب ، ليكون التذكير بالموت كبحاً لغرور الإنسان ، وردعاً له عن الشر والطغيان ، وتذكرة له بالحياة التى يريد له الدين أن يتزود لها :

« وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

« أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

والملحوظ فى سياق آيات التذكير بالموت ، أن القرآن الكريم يعمد إلى التهوين من شأن الحياة الدنيا ، كيلا يغتر بها الإنسان فيطغى ويضل طريقه إلى الحق والخير . . .

وأكثر ما تأتى الآيات فى هوان الدنيا وفنائها ، مقترنة بالحديث عن الحياة الآخرة وبقائها :

« كل نفس ذائقةُ الموت وإنما توفون أجوركم يومَ القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخِل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور » .

« قل إن الموتَ الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تُردون إلى عالِم الغيبِ والشهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهذا الاقتران يبيح لنا أن نقول :

إن كتاب الإسلام لا يشق على الإنسانية بالتزهيد فى الدنيا والتذكير بفنائها ،

لكى ترفضها يأساً منها ، وإنما يرى للإنسانية أن تأخذ من حتمية الموت عبرة تحميها من الأثرة والشر والتهالك على المتاع الدنيوى الزائل . كما تتخذ من إيمانها بالحياة الآخرة ما يعصمها من محنة العدم التى روعت البشرية منذ بدأت حياتها على الأرض . فبقدر ما يلح القرآن الكريم فى التذكير بالموت وفناء الحياة الدنيا ، يلح كذلك فى مقاومة فكرة العدم ، وفى ترسيخ الإيمان بحياة أخرى باقية يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدم فى دنياه ، تأصيلا لدعوة الدين إلى الحق والخير والعمل الصالح .

* *

هنا نعود على بدء ، فنذكر ما هدى إليه الاستقراء من الفرق الواضح فى الدلالة بين البشر والإنسان فى البيان القرآنى . فالبشرية فيه هى هذه الآدمية التى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وتجوز أعراضها المادية على كل أفرادها على وجه المماثلة .

وليس الأمر كذلك فى « الإنسان » حيث يؤذن البيان القرآنى بأنه الذى يحتمل تبعات الأمانة والعهد والوصية وأعباء التكليف والمسئولية والمكابدة ، وهو الذى يختص بالعلم والعقل والبيان . وهنا يتفاوت أفراد الإنسانية بمقدار ما يتحملون من عبئها وتبعاتها ، وما يكابدون من مشاق المجاهدة فى سبيل تحقيق مثلها الأعلى . فلا يستوى الخبيث والطيب ولا المؤمن والفاسق ، ولا العالم والجاهل ، ولا المجاهد والقاعد . كما لا تستوى الحسنة والسيئة ولا الظلمات والنور . . .

* * *

فهل لنا إذن ، أن نلمح من هذا التمييز الواضح الصريح بين البشر والإنسان بعض السر المحجب الذى شغل الإنسان منذ كان ، فندرك أن رحلتنا العابرة على الجسر ما بين الحياة والموت ، ليست فى البيان القرآنى إلا ابتلاء لهذا الإنسان الذى تصدى لحمل الأمانة وقد أشفقت منها السموات والجبال والأرض وأعفاها التسخير من تبعة المسئولية ؟

وموضوع الابتلاء ، فيما يسمح لى الاستقراء أن أطمئن إليه ، هو مكابدة السعى لتحقيق الوجود الأمثل للإنسان ، واقتحام العقبة لمشارفة آفاق الحق والخير ،

والمجاهدة الباسلة لمقاومة نوازع الأثرة والشر وجواذب الفتنة بمغريات الدنيا وعَـرَضها الزائل الفانى :

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

[الملك : ٢]

« وما جعلنا لبشر من قبلِك الخلدَ أفئن مت فهم الخالدون . كلُّ نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا ترجعون » .

[الأنبياء : ٣٥]

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوَهم أيهم أحسنُ عملا » .

[الكهف : ٧]

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيراً . إنا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً » .

[الإنسان : ٣]

(وانظر معها آيات : الأعراف ١٦٨ ، هود ٢٧ ، النحل ٩٢ ، الدخان ٣٣، محمد ٣١) .

* * *

وبهذا الابتلاء لا تعود رحلة الإنسان العابرة فى الدنيا عبثًا باطلا ، بل يموت الآدمى البشر وتبقّى القيم العليا والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، ذخيرة للإنسانية على مسار الزمن ، ومنارات هادية لها على الطريق ، فيتحقق للإنسان من الخلود بها ما لا يتحقق له من تلك المحاولات القديمة كتحنيط الجثث ونحت التماثيل وإقامة النصب التذكارية ، إذ مهما تبلغ المهارة فى التحنيط فمآل الجثث حتمًا إلى تعفن وبلى ، ومهما تكن صلابة الحجر الذى ينُحت منه التمثال ، فلن يعصى على أفاعيل الزمن . والقيم الإنسانية وحدها هى التى تخلد وتبقّى :

« فأما الزبَدُ فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأرض . . . »

* * *

ومن هنا ، يتميز ما هو فانٍ من البشر ، وما هو باق من الإنسان . ولا تزال الإنسانية تجد فيما خلّف لها الصفوة من بنيها على تتابع الأجيال ، ما تضيفه إلى

رصيدِها من الطاقة على استمرار الحياة ، وما تتقدم به خُطاها على مدارج الترقى .

وإذا كانت الإنسانية قد فزعت من فكرة العدم وتشبثت بأمل البقاء بعد الموت ، فإن الدين يمنحها هذا الأمل المرجو ، مع توجيه كل طاقاتها إلى المقاومة الباسلة فى معركة الصراع الأبدى بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، وإلى المجاهدة الشاقة فى سبيل تحقيق الوجود الأسمى لهذا الإنسان، الذى أمر الله ملائكته أن يسجدوا لأبيه آدم !

* * *

ترى هل يكون للإنسان فى هذا بعض العزاء عن مأساة بلى الأجساد وانتهاك الرمم ؟ تلك المأساة التى روّعت شاعرى « أبا العلاء » فاختلط فى سمعه الشدو بالنواح ووجد أن حزناً فى ساعة الموت أضعاف سرور فى ساعة الميلاد :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأر ... ض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـدُ ، هوانُ الآباء والأجداد
. . . .
رُب لحد قد صار لحداً مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... فى طويل الأزمان والآباد

(سقط الزند)

* * *

إذا الحىّ ألبسَ أكفانَه ... فقد فنى اللبس واللابس
ويبلى المحيا فلا ضاحك ... إذا سر دهر ولا عابس
ويحبس فى جدث ضيق ... وليس بمطلقه الحابس
يجاور قوماً أجادوا العظات ... وما فيهم أحدٌ نابس !

(اللزوميات)

« يا جدث ، بعد موتى . . هل تسمع ندائى وصوتى ؟ يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض ، أُودعتِ المال فرددته سالماً ، والخليلَ فأكلته راغماً ، ليتك أكلت المالَ ورددت الخليل . . .

« وصيح بالأرض اقبلى رهنك وبالنزيل فاغدرى! وحيز المال ونُسى العهد وانتوى عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم . . .

« يا معشر أهلنا الصالحين . بئس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم البارد ولبسنا ناعم اللباس وأظلتنا الجدر وأفنية الدور ، لو كنا أهل حفاظ عِفنا بعدكم النطف العِذاب . . . »

(الفصول والغايات)

عالَـمُ الرّوح

« ويسألونك عن الروحِ ، قل الروحُ من أمرِ ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

[سورة الإسراء]

لم يفت الإنسان من قديم ، أن يفرق بين عنصره المادى ممثلاً فى الجسد ، وعنصره المعنوى ممثلاً فى الروح . وقد ربط الحياة والموت بهذه الروح الذى تمنحه الحياة ، فكانت الروح تعنى النفس ، من حيث لا بقاء لنفس بغير روح .

وشغل الفلاسفة والمفكرون من قديم الزمان بأمر هذه الروح . وقلما نلحظ فى كلامهم عنها أنهم يفرقون بينها وبين النفس ، فهم يذكرون الروح ويعنون بها النفس ، كما يذكرون النفس ويعنون بها الروح . وقد أعياهم أن يصلوا إلى كنهها ، وإن عرفوا من ظواهرها أنها سر الحياة ، متى فارقت الجسد فسد ومات . .

ومن حيث كانت سر الحياة ، انتفى عند أكثرهم القول بموتها وفنائها ، لأن ما به تكون الحياة لا يفنى ولا يموت . . .

أما من أين جاءت ، وإلى أين تمضى ، فذلك ما تحيرت فيه العقول والأفكار ، وتاهت الظنون وضلت الأوهام .

وأكثر الفلاسفة اليونانيين ، على أن الروح عنصر لطيف مختلف عن البدن ، ومتى فارقته عادت إلى عالمها العلوى « سابحة فى عوالم الفلك غير قابلة للموت » كما قال « فيثاغورس » لديوجينس . وعند « أفلاطون » أنها جوهر الإنسان ، وهى ذات مستقلة عن البدن ، فليس جزءاً من ماهيتها ولا يدخل فى تعريفها . وهى تهبط مكرهة من عالم علوى إلى أحد الأجسام ، ومن الواجب أن تعمل ما استطاعت على التطهر من الأدران التى تلحقها بسبب وجودها فى سجن الجسد . والموت هو سبيل الخلاص لها . والنفوس خالدة لا تموت .

وأرسطو يراها كذلك مستقلة عن الجسم ، ذات وجود سابق عليه ، وتخلد بعده لا تموت .

ويقول أفلوطين : « ربما خلوت بنفسى وخلعت بدنى وصرت كأنى جوهر بلا بدن ، فأكون داخلاً فى ذاتى خارجاً عن جميع الأشياء ، فأرى فيها من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجباً مبهوراً ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف الفاضل »[1]

* * *

(١) للأستاذ الجليل على نصوح الطاهر ، جهد قيم فى استقراء « أقوال الفلاسفة ، القدامى والمتأخرين ، فى النفس » راجعه فى كتابه « الروح الخالدة » ص ٣٧ وما بعدها ، ط الأردن – ١٩٦٠ .

وفى معجم العربية ، تأتى الروح مراداً بها : ما تقوم به حياة الأنفس . أما النفس فتطلق على ذات الإنسان ، مادة ومعنى ، فيقال : جاء فلان نفسه . كما تطلق على العنصر المعنوى منه ، فيقال : علم الله ما فى نفسى . وتأتى أحياناً بمعنى الروح فيقال : خرجت نفسه ، إذا مات ، ملحوظاً فيها ما ليس بمادى من كيانه .

والقرآن الكريم يفرّق بين الروح والنفس ، فليستا فيه مترادفتين .

الروح تأتى فيه إحدى وعشرين مرة ، منها ما يعنى أمين الوحى :

« وإنه لتنزيلُ رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » .

[الشعراء : ١٩٣]

« قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

[النحل : ١٠٢]

ومنها ما يتصل بموضوعنا ، إذ تأتى الروح فيه بمعنى السر الإلهى الذى تصير به المادة الآدمية كائناً حيًّا .

فى خلق آدم ، أبى البشر ، يقول تعالى للملائكة : « فإذا سوّيتهُ ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

[الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢]

وفى خلق الجنين الإنسانى ، بعامة ، يقول سبحانه :

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون » .

[السجدة : ٩]

والروح هى كذلك السر الإلهى الذى تجلى فى مريم المصطفاة ، فحملت جنينها الحى :

« ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

[التحريم : ١٢]

وهذه الروح التى من أمر الله ، لا يدرى كنهها غيره سبحانه وتعالى :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ».
[الإسراء : ٨٥]

أما النفس فتأتى فى القرآن الكريم مفردة فى مائة وست عشرة آية، وجمعا بصيغة نفوس مرتين ، وبصيغة أنفس مائة وثلاثاً وخمسين مرة .

نتدبر سياقها جميعاً فنلحظ أنها تعنى الذات بعامة . أى بعنصريها المادى والمعنوى . ومن ثم يجوز عليها الموت والقتل :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » .

[آل عمران : ١٤٥]

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »

[آل عمران : ١٨٥]

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . .
[المائدة : ٣٢]

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » .

[المائدة : ٤٥]

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » .

[الزمر : ٤٢]

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق »

[الأنعام : ١٥١]

« قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا » .

[الكهف : ٧٤]

« قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » .

[القصص : ١٩]

وبهذا الإطلاق لا تكون النفس مرادفة للروح التى هى سر الحياة ، لكنها كذلك ليست مرادفة للجسد، بل لعلها أقرب إلى أن تعنى الضمير أو العنصر المعنوى من الإنسان ، بشاهد من صريح النص فى مثل آيات :

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

[القيامة : ٢]

« بل الإنسان على نفسه بصيرة » .

[القيامة : ١٤]

« وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » .

[يوسف : ٥٣]

«ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجةً فى نفس يعقوب قضاها » . .

[يوسف : ٦٨]

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

[لقمان : ٣٤]

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » .

[الحشر : ١٨]

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

[الكهف : ٦]

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

[فاطر : ٨]

« وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

[الأحزاب : ٣٧]

« فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » .

[يوسف : ٧٧]

« وكذلك سوّلت لى نفسى » .

[طه : ٩٦]

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

[يوسف : ٨٣]

« يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك » .

[آل عمران : ١٥٤]

« قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب » .

[المائدة : ١١٦]

« وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » .

[التوبة : ١١٨]

والنفس فى القرآن الكريم هى التى توصف بالطمأنينة والرضى (الفجر ٢٧) ومنها يكون التضرع والخيفة (الأعراف ٢٠٥) والاستيقان (النمل ١٤٦) والإيثار (الحشر ٩) والخداع (البقرة ٩) والحسد (البقرة ١٠٩) والمقت (غافر ١٠) والوسوسة (ق ١٦) .

ويتعلق بها الإيمان والكفر ، والهدى والضلال (الإسراء ١٥ ، الأنعام ١٠٤ ، يونس ١٠٨ ، الزمر ٤١ ، سبأ ٥٠ ، النمل ٩٢ . . .) .

والخيانة والفجور والتقوى (النساء ١٠٧ ، الشمس ٧) .

وهى التى تحتمل كذلك التكليف (الأنعام ١٥٢ ، الطلاق ٧) كما تتلقى الجزاء ثواباً أو عقاباً :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

[الفجر : ٢٧]

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » الأنبياء ١٠٢ ومعها آيات : فصلت ٣١ ، والزخرف ، ٧١ ، والنحل ٥٧ والطور ٢٢ .

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

[المزمل : ٢٠]

« ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » .

[الأعراف : ٩]

« اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

[الإسراء : ١٤]

ولا يستعمل القرآن الكريم الجسد أو الجسم فى سياق الحديث عن الجزاء أو الحساب ، فلم يأت لفظ الجسد فيه إلا أربع مرات بمعنى الصور والشخوص :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً » .

[الأعراف : ١٤٨ ، ومعها طه : ٨٨]

« وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

[الأنبياء : ٨]

« ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » .

[ص : ٣٤]

كما لم يأت الجسم فى القرآن كله إلا مرتين ، إحداهما بصيغة المفرد، فى الحديث عن طالوت :

« قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

[البقرة : ٢٤٧]

والأخرى بصيغة الجمع ، فى المنافقين :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

[المنافقون : ٤]

فكأن تحاشى القرآن استعمال الجسد أو الجسم فى الحديث عن الآخرة، إيذان بأن الثواب أو العقاب لا يتعلقان بالجسم وحده دون النفس .

* * *

ويبدو أن هذا الملحظ فى ندرة استعمال القرآن للفظ الجسم وحديثه عن الجسد، هو ما جعل كلمة « النفس » تدخل فى الفكر الإسلامى ، بمعنى الروح. وكأنهم فهموا من كونها تموت أو تقتل ، تعطل الحياة وتوقفها. والمعاجم اللغوية تورد الروح بين معانى النفس . وقد تحير الفلاسفة المسلمون فى كنه النفس ، بمعنى الروح، واشتهرت فيها عينية « الشيخ الرئيس ابن سينا » — القرن ٤هـ — الذى تمثل فيها النفس قد هبطت من العالم العلوى إلى الجسد فمنحته الحياة، وإن شقيت بسجنها فى هذا القفص . وبدت له أشبه ببرق تألق ثم انطوى فكأنه لم يلمع ، ووقف من بعد ذلك حائراً لا يدرى فيم كان هبوطها ، وفيم فراقها . . .

فهل من يدرى ؟

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلتْ على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

حتّى إذا اتصلت بهــاء هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعــالم والطلول الُخضّع

تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامــع تهمى ولم تتقطــع

وتظل ســاجعة على الدمن التى ... درستْ بتكرار الرياح الأربع

إذ عاقها الشَّركُ الكثيف وصدّها ... قفص، عن الأوْج الفسيح المربع

حتّى إذا قرب المسير عن الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدتْ مفارقة لــكل مخلّف ... عنها حليف الترب غيرَ مشيع

سجعتْ وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجّع

وغدت تغرد فوق ذروة شــاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفــع

فلأى شىء أهبطت من شــامخ ... عال إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت على الفذ اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربــة لازب ... لتعود ســامعة لما لم تسمع

وتعود عالمة بــكل خفيــة ... فى العالمين، فخرقها لم يرقع

وهى التى قطع الزمان طريقهــا ... حتّى إذا غربت بغير المطلع

فــكأنهــا برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فــكأنه لم يلمع

أنعم برد جواب ما أنا فاحص ... عنه، فنار العلم ذات تشعشع [1]

وتذكرنا العينية، بقول عمر الخيام فى رباعياته، كما ترجمها محمد السباعى

عجبــاً للروح إن كان يطيق ... نضو سربال من الطين صفيق

وسموا لمــدى النجــم السحيق ... ماله ، تبــا له ، قد لزما

سجنــه السفلى مــذموم اللزام

* * *

ويمضى ابن سينا فى تأمله، فيرى «أنا نشاهد أجساماً تمشى وتتحرك بالإرادة، ...

---

(١) من شروح عينية ابن سينا ، شرح السيد نعمة الله الجزائرى الشوشترى (ط طهران ٩٥٤ ... ولعل أحدث شروحها ، بحث فلسفى موضوعه نظرات فى عينية الشيخ الرئيس ، وعنوانه « الروح الخال... للسيد الأستاذ على نصوح الطاهر (ط الأردن ١٩٦٠) وله قصيدة عينية ، تشطيراً لقصيدة ابن سينا ... النفس ، وقصيدة أخرى جواباً عن سؤال ابن سينا رد عليه فيها . ومعها معارضتا أحمد شوقى و... الغضبان .

نشاهد أجساماً تتغذى وتنمو وتولد المثل وليس ذلك بجسميتها ، فبقى أن يكون فى ذلك مبادئ لها غير جسميتها ... والشيء الذى يصدر عن هذه الأفعال نسميه نفساً » .

وجمع ابن حزم فى الجزء الخامس من كتابه «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» أقوال عدد من المتكلمين والفلاسفة فى النفس. وقد ذهب أبو الهذيل العلاف إلى أنها عرض كسائر أعراض الجسم . على حين رأى تلميذه النظام أن الروح جسم لطيف ، وهى أفضل ما فى الإنسان ، أو هى حقيقته ، والبدن آلتها .

وذهب إخوان الصفا إلى أنها فيض صادر عن النفس الكلية أو نفس العالم . ونفوس أفراد الإنسان تؤلف جوهراً يمكن أن نسميه الإنسان المطلق أو النفس الإنسانية .

وهى عند الكندى ، فى الرتبة الوسطى بين العقل الإلهى وبين العالم المادى. وهى من جوهر بسيط غير فان ، هبط من عالم العقل إلى عالم الحس ، ولكنه مزود بذكريات من حياته السابقة ، وهو لا يقر له قرار فى هذا العالم ، لأن له حاجات شتى تحول دونها الحوائل الكثيرة .

ويقول الفارابى : « أنت مركب من جوهرين أحدهما مشكل مصور . مكيف مقدر ، متحرك ساكن ، متجسد منقسم . والثانى مباين للأول فى هذه الصفات غير مشارك له فى حقيقة الذات ، يناله العقل ويعرض عنه الوهم » .

ويقول ابن مسكويه : « إن النفس جوهر بسيط غير محسوس بشىء من الحواس ، تدرك وجود ذاتها وتعلم أنها تعلم وأنها تعمل » .

ونقل « ابن حزم » عن أبى بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، أنه أنكر النفس جملة وقال : لا أعرف إلا ما شاهدته حواسى . على حين يقول معمر بن عمرو العطار ، أحد شيوخ المعتزلة :

« النفس جوهر ، ليست جسما ولا عرضاً ، ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ، ولا هى فى مكان . ولا تتجزأ وهى الفعالة المدبرة ، وهى الإنسان » .

والغزالى يقول : إنها الإنسان على الحقيقة ، فهو بنفسه لا ببدنه. أما ابن رشد فيذهب إلى أن جوهر النفس وحقيقتها نشاط وإدراك عقلى .

ويشغل الحديث عن الروح فلاسفة الغرب المحدثين ، فيجحد الماديون وجودها .

ويفسر « هارتلى » العمليات العقلية بأنها لا تعدو أن تكون ذبذبة فى الجهاز العصبى. وبقى المتدينون على القول بأن الإنسان مادة تبلى، وروح باقية خالدة لا تموت . . .

* * *

والإيمان الدينى بالحياة بعد الموت ، لم يحل دون تطلع البشرية إلى ذلك الأفق المحجوب .

والأحلام والرؤى ، هى التى وجهت الإنسان — فيما أتصور — إلى محاولة الاتصال بما وراء الموت .

من حيث تبدو الرؤيا ، وكأنها تنسخ الواقع الصارم وتجمعنا بموتانا الراحلين ، فى غيبة من رقابة الوعى والإدراك الحسى .

وهى ظاهرة لافتة، لم تكن لتمضى دون أن تغرى الإنسان بجديد من المحاولات .

* * *

والإنسان بمحاولته الاتصال بما وراء الموت ، لايتحدى حقيقة الموت الصارمة .

وأنى له أن يتحداها ، ومامن مولود يولد إلا كان كل نَفَس من أنفاس حياته محسوباً عليه من عمره ، وكل خطوة يخطوها على درب الوجود ، ليست فى الحقيقة إلا خطوة على الجسر ما بين الحياة والموت ؟

كلا . . .

ليس الأمر تحدياً ،وإن إنسان عصر الفضاء ليعى تماماً أنه لا يزال يقف حيث وقف الإنسان الأول منذ ما لا يحصى من ملايين السنين ،ضائعَ الحيلة مغلوباً على أمره . . .

وفى كل لحظة ، يودع الأحياء أحبابهم الذين سبقوهم إلى المصيّر المحتوم ، وأقصى ما يملك أحدنا أن يتأسى به ، هو أن يهتف بمن رحل: وداعا،وإلى الملتقى !

* * *

وكانت الأحلام والرؤى ، هى الوسيلة المتاحة للإنسان كى يلقى الأحباب بعد رحيلهم . وقد عاشت البشرية دهوراً وأحقاباً لا تجد غير الرؤى بديلا لما كان الإنسان يحيا به فى الأمس الذى ولى وراح . وقد تتجسد الرؤى عند مرهفى الحس والوجدان ، إلى المدى الذى يصير فيه هذا اللقاء فى الرؤيا ، زاد حياتهم الشقية ورى قلوبهم الصادية ، فإذا ما هزتهم صدمة اليقظة ، خدرهم عنها انتظار

موعد قريب مع الأحباب ، عند ما يحررهم النوم من قيود الحس الواعى ويطلقهم من أسر واقع حزين يقفون فيه على قبور أحبابهم يسألونهم فلا يرجعون جواباً ، ويخاطبونهم فلا يتلقون رداً غير رجع الصدى !

وكان أبو العلاء ، ممن أطالوا الوقوف على أجداث الراحلين . يصغى فى أعماق الصمت الموحش إلى رجع صداه :

وقفتَ على أجداثهم وسألتهم — فما رجعوا قولا ولا سألوكا

* * *

ولم يسمعوا قولا ، أمن صمم بهم — ولم يفهموا رجعاً كأنهم خرس

* * *

« لو غبرت ألف حقبة ، ما ورد علىّ منهم كتاب ولا رسول . . .

« سلم الله عليكم أهلَ ديار لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترجل النهار . أشتاق إليكم وإلى مَن أشتاق ؛ لا الأرواح متكلمة ولا الأجساد ملتئمة ولا المنازل برحاب . . .

« كيف أصبحتم أهلَ المنازل الدارسة : إن ما أصابكم لَلخطبُ الجليل . . . يهتف بكم الصائح فلا يجاب » . (الفصول والغايات)

ولاذ الشاعر المحزون ، بالرؤيا تجمعه بمن رحلوا ، فقال فى سقط الزند :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة — وشتان برء للنفوس وإعلال

إذا نمتُ لاقيت الأحبة بعد ما — طوتهم شهور فى التراب وأحوال

وقال فى اللزوميات :

غُيِّبَ ميْت فما رأته — عين ، سوى رؤية المنام

وفى الفصول والغايات :

« أسعد الله الأرواح ، فلا أعرف فائدة للدفين فى قول القائل : أيها القبر سُقيت غماماً ! إن الحى والميت لا يتزاوران ، فرضى الله عن قوم نراهم فى الرقدة لماما .

« سبحانك مؤبد الآباد . . . هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات ، وإذا هجعت لقينى قريبُ عهد بالمنية ومن قد فُقد منذ أزمان . أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بحبل الحياة متعلقون . . . »[١] .

---

(١) تحدث كثير من الشعراء عن زيارة طيف الحبيب فى الرؤيا ، والحبيب حى . وقد جمع الشريف المرتضى قدراً من أشعارهم فى كتابه « طيف الخيال » .

وما كانت ظاهرة التقائنا فى رؤيا المنام بمن رحلوا عن دنيانا ، لتمر دون أن يلتفت إليها الباحثون عن المجهول .

والنوم يُسقط الوعى . . .

فهل من سبيل إلى رؤيا الراحلين ، بإسقاط لوعى من يضنيهم موت الأحباب ؟
من هنا كان المنطلَق إلى المحاولة الجديدة لتسخير العلم فى الاتصال بعالم الروح .

وليس من الضرورى أن يكون أصحاب هذه المحاولة قد تنبهوا إلى انطلاقها من منطقة الأحلام والرؤى ، بل إن مثل هذا الانطلاق قد يحدث تلقائيًّا ، استجابة لتطلع خفى من الوجدان البشرى ، يبدأ من حيث تلوح له الرؤيا فتخايله بالأمل فى نقلها من حلم إلى واقع .

أو هذا هو ما أتصوره ، فى ضوء المعروف لنا من ماضى تاريخ العلم وخطوات سير الحضارة :

فسفن الفضاء مثلا ، بدأت أول ما بدأت عند ما لاح للبشرية فى قديمها الأسطورى ، حلم الطيران على أجنحة . ثم فى عصر الأديان ، سمعت قصة سليمان مع الجن أو بساط الريح .

وقد ظل الحلم يخايلها ويغريها بمحاولة تحقيقه ، فكانت تجربة « عباس بن فرناس » على بساطتها وسذاجة وسائلها ، الخطوة الأولى لتحقيق الأمل الذى تعلقت به البشرية منذ حلمت ببساط الريح .

وأزرار العصر الآلية ، التى تلبى حاجات الإنسان المادية بلمسة هينة من إصبعه للأجهزة الكهربائية ، بدأت أول ما بدأت فى الحلم الأسطورى الذى تراءى للبشرية ، فخيل إليها أن الإنسان يستطيع بلمسة هينة من إصبع لفصّ الملك فى خاتم سحرى ، أن يستحضر عبداً من الجان يقف بين يديه مسخراً فى قضاء حاجاته وتحقيق رغباته ، قائلا فى خشوع :

لبيك سيدى لبيك !

عبدك وملك يديك !

وعاشت الإنسانية دهوراً وأحقاباً دون أن تتخلى عن ذلك الحلم العجيب الذى

اتجهت إليه أمانيها ، فكانت أزرار العصر الآلى ، هى التجسيد الواقعى للخاتم السحرى الأسطورى . . .

* * *

والأمر فيما يتصل برؤانا التى نلقى فيها أحبابنا بعد رحيلهم ، ليس من قبيل الأحلام الأسطورية !

ولا هو من ميراث العصور الخالية ، أعياها أن تحققه بوسائلها البدائية ، فتركته للعصور من بعدها ، أمانة وأملا . . .

وإنما الرؤيا فى دنيانا حقيقة لا تجحد ، إذا جاز لى أن أستعمل لفظ الحقيقة هنا . وأنا أعنى بها ما يحدث حقًّا من لقائنا بموتانا ، فيما تجسده الرؤى التى تفرض وجودها على رواد الفضاء وغزاة القمر ، كما تفرضه على المجتمعات البدائية فى نجوع البادية وكهوف الإسكيمو وأدغال الغابات . . .

فلكل إنسان منا أحلامه ورؤاه .

وإن اختلف مجالها وتفاوتت طاقاتها على التشخيص والتجسيم والإحضار .

* * *

وعلم النفس الحديث يخضع الأحلام لتفسيرات يراها أصحابها تفسيرات علمية[١]

وقد يردون رؤى لقاء الأعزاء الراحلين ، إلى أشواق ضاغطة لا تجد لها متنفسًا فى وعى اليقظة ورقابة الإدراك . فإذا ألحت الرؤى على فرد منا وقوى تجسيمها للشخوص وإحضارها للأطياف ، فذلك فى رأى النفسيين محاولة للهروب من مأساة فقد الأحباب . وإمعان فى الإفلات من وطأتها الباهظة ، فى غيبة من رقابة الوعى . وربما عقَّدوا الأمر على بساطته ، فلمحوا وراء الإلحاح فى لقاء الموتى بالرؤيا ، وسيطرتها على وجدان الحالم ، عقدة نفسية تحتاج إلى تحليل وحل وعلاج ! .

ولكن هذه التأويلات وأمثالها ، لا تخرج عن كونها فروضًا أو نظريات ، تظل عرضة للنسخ أو التعديل ، ومجالا لإعادة النظر .

* *

(١) وانظر « الروح الخالدة » ص ٦٧ .

ثم إنى فى الواقع لا أدرى ما إذا كان النفسيون يفرقون بين الأحلام والرؤى ، أم إنهم يأخذون فيها بالدلالة المعجمية التى تفسر الحلم بالرؤيا ، فكأنها تقول بترادفهما ؟

على حين نؤثر نحن ، أصحاب التخصص فى العربية لغة وبيانًا ، أن نستعمل الأحلام فيما هو من هواجس الوهم ، والأضغاث المختلطة المشوشة التى يعوزها ما للرؤيا من جلاء المرئى ووضوح التميز وقوة التمثل والإحضار . ولم يكن عبثًا عشوائيًّا أن العربية فى حسها الدقيق المرهف ، استعملت الفعل « رأى » للرؤيا ، وللرأى ، منقولا إليهما من الرؤية . وإنما لحظت فى هذا الاستعمال ، قوة الوضوح وجلاء المرئى فكأنه مشهود بالعين الباصرة ، ثم خالفت بين مصادر هذا الفعل الواحد ، بيانًا للفروق فى الدلالة ، فجعلت الرؤية للبصر الحسى ، والرؤيا للمنام ، والرأى للأفكار والمعانى .

ولا بأس هنا من استطراد يسير ، ألفت به إلى ما يجلوه البيان القرآنى من تمييز بين الأحلام والرؤى :

فكتابنا الأكبر لا يستعمل الحلم إلا بصيغة الجمع مع إضافة الأحلام إلى أضغاث ، دلالة على الخلط والتشوش والتداخل . على حين تأتى « رؤيا » فى القرآن ، مفردة دائمًا ، دلالة على الوضوح والتميز . وسياق آيات « الرؤيا » جميعًا ، صريح الدلالة على صدق الإلهام .

فالملأ الذين استفتاهم ملك مصر فى تأويل رؤياه عن * سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات * بدت لهم الرؤيا — وقد كانت صادقة الإلهام — من أضغاث الأحلام .

« يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

[يوسف : ٤٤]

ففى الموقف الواحد ، يستعمل القرآن الرؤيا فيما رآه ملك مصر بجلاء ووضوح ويقول عنها الملأ من قومه أضغاث أحلام ، حين أعياهم أن يدركوا دلالتها الملهمة .

وكذلك أعيا المشركين من قريش ، أن يصفوا ما تلقى محمد صلى الله عليه وسلم من وحى ربه :

« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون » .

[الأنبياء : ٥]

وفى القرآن من الرؤيا ، غير رؤيا ملك مصر التى صدقت ، خمس رؤى أخرى ، كلها بصيغة المفرد ، وكلها كذلك فى الرؤيا الصادقة . وملحوظ أنها فى المواضع الخمسة من رؤى الأنبياء .

فرؤيا يوسف التى قصها على أبيه ، فقال له :

« يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين » .

تمضى القصة حتى تصدق الرؤيا :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياى من قبلُ قد جعلها ربى حقًّا » .

وفى آية الفداء من قصة إبراهيم :

« وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين » .

وكذلك صدقت رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ، فى آية الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » .

وفى آية الفتح ٢٧ :

«لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتدخلُنّ المسجدَ الحرامَ إن شاءالله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا»

ولهذا البيان القرآنى المعجز ، ندين بما نجتلى من أسرار العربية فنميز بين الأحلام والرؤى ، حين تمضى معاجمنا على القول بترادفهما .

* * *

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من حديث عن نظريات النفسيين فى الأحلام ، فلا أراها تعطينا تفسيراً مقنعًا لطاقة رؤانا على بث الحياة فى شخوص من أودعناهم جوف الثرى !

فنحن نراهم على العهد بهم ، فى عز نضرتهم وحيويتهم لم ترهقهم غبرة من

موت . ونبادلهم الحديث والنجوى دون أن نحس فى أصواتهم أثراً من إعياء أو فتور ، وكأن لم تضرب بيننا يد النوى فتمزق الشمل ، وكأن لم يرقدوا فى مضاجعهم صامتين هامدين !

وفى وعى اليقظة ، تأخذنا الحيرة والدهشة تجاه هذا السر العجيب الذى يلغى ما بيننا وبينهم من أبعاد تفوت الظن والخيال ، وتتضاءل حيالها أبعد المسافات الكونية التى طواها إنسان العصر .

* * *

والعلم الحديث يستطيع أن ينقل الأصوات والصور عبر تلك المسافات الشاسعة فى مثل لمح البصر .

لكن رؤانا ، ولا أقول أحلامنا ، تنقل إلى سمعنا وبصرنا بغمضة عين ، أصواتاً أخرسها الموت وأجساماً عاث فيها البلى . . .

دون أن تستعين على هذا النقل الفورى بأى جهاز تصوير أو آلة تسجيل للصوت !

ودون أن ندرى ماذا هنالك فى عالم الموتى ، كى نوجه أجهزتنا الصوتية والضوئية لنقله !

من هنا ، كما قلت آنفاً ، يمكن أن يكون المنطلق إلى ما نسمع من محاولة جديدة للوقوف على حافة العالم الأثيرى ، تشاغلها أحلام الاتصال بذلك الأفق البعيد غير المنظور .

يحدوها الإيمان بالحياة بعد الموت .

وتغريها الرؤيا ، بأن ترنو بأحلامها إلى لمح ما وراء الفناء الظاهر من عجيب الأسرار .

* * *

فمنذ لبَّى الدين شوق البشرية إلى البقاء وأيد نضالها العتيد فى مقاومة فكرة العدم ، كان الإيمان بالحياة بعد الموت ، هو الذى أغراها بالمحاولة .

وإذا كان فى بنى الإنسان من لاذوا براحة الاطمئنان إلى وعد لقائهم بأحبابهم فى الحياة الآخرة ، والتمسوا من رؤياهم بعض العون على احتمال وطأة الانتظار ،

فإن فيهم كذلك من ثقلت عليهم مأساة الإنسان ، فرفضوا الحياة والتمسوا لدى الموت إحدى الراحتين .

وآخرون منهم ، عز عليهم اليأس ، كما عز الاحتمال ، فمضوا يحاولون الاتصال بأرواح الأحباب بعد رحيلهم .

تخايلهم الأحلام فى اقتحام ذلك العالم المحجوب ، بما تهيأ للعصر من وسائل ، بعد أن تحكم الإنسان فى موجات الأثير ، وفهم ظواهر الفضاء الكونى ، وانتصر على المسافات الشاسعة . . .

ويمكن القول بأن المحاولة بدأت منذ قرن وبعض قرن . دون أن يغيب عنى أنها مرت بمرحلة طويلة سابقة ، اعتمدت فى تحضير الأرواح على الوهم والتخييل والسحر ، وما تزال رواسب من تلك المرحلة الغابرة ، باقية إلى عصرنا فى المجتمعات البدائية التى تعيش بمنطق السحر وتفكر بعقلية عصره السحيق .

ولكن الجديد فى المحاولة ، هو دخول عدد من علماء الطبيعة فى الميدان ، وتشبثهم باقتحام عالم الروح الغيبى ، بوسائل مستحدثة لم يكن لفنون السحرة وألاعيب الجن عهد بها . وسجل منتصف القرن التاسع عشر بداية التطور فى موضوع استحضار الأرواح ، بتأسيس المدرسة الروحية فى لندن سنة ١٨٤٨ . ومن ذلك الحين بدأت تتناثر أقاويل وشائعات وأنباء ، عن غريب التجارب التى يقوم بها بعض علماء الطبيعة لاستحضار أرواح الموتى ، عن طريق وسطاء ذوى تكوين طبيعى خاص ، يقال إن أجسامهم تحمل من عنصر « الأكتوبلازم » قدراً يفوق بكثير ، ما تحمله أجسام عامة الناس .

والذين كتبوا عن هذه التجارب ، يتحدثون عنها بلغة قريبة من اللغة العلمية التى مرنوا عليها فى دراستهم المتخصصة للطبيعة .

على أن المحاولة ظلت تقابل بالصد والشك والتجاهل ، أو بالسخرية والازدراء ، حتى جذبت إلى ميدانها أشهر العلماء الإنجليز فى الربع الأول من القرن العشرين : « سير أوليفر چوزف لودج » الذى أضفى عليها نوعاً من الثقة ، بمجده العلمى العتيد ، وبحوثه القيمة فى الإليكترونات والأثير والبرق ، ومكانته العلمية مديراً لجامعة برمنجهام ، وأستاذا لجيل من علماء عصرنا .

وقد دخل الميدان إثر صدمة هزت كيانه ، إذ قتل ولده فى الحرب العالمية

الأولى ، فكان اتجاهه إلى عالم الروح عاصماً له من الانسحاق تحت وطأة الصدمة ، وكانت تجاربه للاتصال بروح ولده ، مشغلة له عن الحزن المتلف والأسى المدمر .

ودخوله الميدان ، لم يُضْفِ على المحاولة نوعاً من الثقة فحسب ، بل إنه كذلك شدّ بجاذبية شخصيته ووقار سنه ، عدداً غير قليل من العلماء بدأت بهم مرحلة رواج وازدهار فى الربع الثانى من القرن العشرين ، بحيث صارت تجارب استحضار الأرواح « مودة » ذاك العصر !

والذين شاركوا فيها ، يؤكدون أن تجاربهم أوصلتهم إلى ظواهر بالغة الغرابة وأنهم استطاعوا أن يسجلوا أصواتاً للموتى الذين تحضر أرواحهم فى الجلسات . وأن يلتقطوا صوراً لبصمات أصابعهم ، بشهادات قدموها لعدد من العلماء ذوى السمعة الطيبة ...

*

وانتقلت إلينا أصداء من ذلك كله ، عن طريق المرحوم « الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير » الذى ترجم كتاب « على حافة العالم الأثيرى » للعالم الاقتصادى « چيمس أرثر فندلاى » الذى قضى نحو ثلث قرن فى دراسة الميثولوچيا الدينية ، ثم عبر منها إلى حافة العالم الأثيرى ، ورأس المعهد الدولى للبحث الروحى فى لندن .

وراج كتابه فينا ، فطبعت ترجمته العربية ثلاث طبعات ، آخرها عام ١٩٥٤ ، بعد أن فترت المحاولة فى أوربا وآذن عهد ازدهارها بمغيب ، فساغ للموسوعة العربية الميسرة أن تقدم مادة « بحوث روحية » فى سياق « المظاهر الهيستيرية والهلوسات الجماعية التى تحدث فى الجلسات المعروفة عند العامة بتحضير الأرواح » .

ثم تختم الموسوعة هذه المادة بما نصه :

« والبحوث الروحية يعوزها الضبط العلمى التجريبى ، ويُعد الاهتمام الزائد بها من الأعراض المرَضية النفسية » .

* * *

وفات الموسوعة وهى تلقى حكمها السريع بمثل هذه البساطة الهينة ، أن ترد انحسار موجة الروحانيات إلى غلبة المادية على العصر من ناحية ، وإلى التطور العلمى الحديث من ناحية أخرى .

فتجافى العلم عن هذه الغيبيات ، التزام بمنجهه التجريبى الدقيق ، الذى يرفض أن يقول فى الغيبيات بنفى أو إثبات. ويرى فيها رجعة إلى عصر (الميتافيزيقا) الذى انتهى منذ تخلى العقل الإنسانى عن غروره الذى زيَّن له قديمًا أن يقتحم المجاهل وراء الطبيعة ، ليصل إلى أسرار العناصر وكنه الأشياء .

والعلم الحديث يدرك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية لأسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص ، تاركًا أسرار الميتافيزيقا حتى تخرج من نطاق الغيبيات فيسقط عنها الحرج .

وقل فينا من التفت إلى أن الدين يلتقى مع العلم فى هذا الموقف ، إذ يأبى علينا أن نخوض فى الغيبيات بغير علم !

أما حين يصل العلم إلى اكتشاف شئ مما نعده غيبيا ، فقد خرج من نطاق الحظر ، وسقط عنه الحرج الدينى والحرج العلمى ، كلاهما !

* * *

ومن حق العلماء الذين ناضلوا مستبسلين فى مجال البحث الروحى ، أن نلقى جهودهم الجادة المضنية بالعطف والتقدير مهما يعوزنا الاقتناع بها . وكتاب الإسلام يحمينا من التورط فى مصادرة حق البحث أو رفض ما قد يثبته العلم من نتائجه ، لأن كل البحوث التى يطلق عليها « البحوث الروحية » لا تعدو أن تكون من ظواهر الروح ، ولا شىء منها يصل إلى سرها المحجوب أو يدرك كنه حقيقتها .

ونحن نتلو آية الروح فى كتاب ديننا :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

فندرك ضآلة ما أوتينا من العلم ، ويأخذنا هذا الإدراك بشىء من التواضع ، يلزمنا حدَّنا عند فهم الظواهر الروحية . والذى وصلت إليه بحوث المشتغلين بتحضير الأرواح ، لا يخرج عن كونه ظواهر . ولست أرى فرقًا ذا بال ، بين استحضار روح من عالم الموتى بتعطيل الإدراك الحسى للوسيط وإسقاطه فى غيبوبة اللاوعى ، وبين ما تمنحنا رؤانا ، دون أى وسيط ، من إحضار لشخوص أحبابنا

الراحلين ، فى غيبة من وعى اليقظة والإدراك الحسى !

* * *

والعلم هنا يؤازر الدين ما دام هذا العلم عاجزاً عن كشف سر الروح وإخضاعها لسلطانه بحيث يستطيع التحكم فيها بأن ينفخ فى جسد ميت فيرده إلى الحياة ، أو يصنع تمثالا جامداً على هيئة آدمى ثم يبث فيه روحًا تجعل منه إنساناً حيًّا ، أو ينشئ مخزناً للأرواح على غرار مصارف الأعين والدم . . .

أذكر أننى فى إحدى رحلاتى إلى ألمانيا ، دعيت لكى أتفرج محلى ما وصفه القوم هناك بأنه إحدى معجزات العلم : تمثال مصنوع على هيئة بقرة ، مزودة بعدد من الأسلاك والأزرار الكهربائية ، يضغط الموكل بها على زر منها فتتحرك البقرة ، ويضغط على آخر فتخور كخوار البقر ، ويضغط على ثالث فتدر اللبن من أثدائها !

يومها سئلت عن هذه (المعجزة) فأجبت :

— عجيبة حقًّا ، لكنها ليست أعجب من الإنسان الآلى ، وبالتأكيد ، ليست أعجب من (الراديو الترانزستور) والعقل الإلكترونى ! ولن تكون معجزة حتى تستغنوا عن كل هذه الأزرار والأسلاك الكهربائية !

ثم استطردت فسألت :

— إنكم لتعرفون أدق المعلومات عن أجهزة البقرة الطبيعية ، وتعلمون كل المواد التى تتكون منها ، ومقدار كل مادة ونسبتها ، فهل فى طاقتكم أن تبثوا روح الحياة فى أى عضو من أعضائها ؟

وتلوت فيما بينى وبين نفسى آية الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

إنسان العصر بين الدين والعلم

« إنما يخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ » .

[سورة فاطر]

إنسان العصر يواجه اليوم موقفه العصيب بين الدين والعلم . . .

بعد أن فجر الذرة ، وأنطق الصخر ، وتحكم فى موجات الأثير واقتحم مجاهل الفضاء ، وبعث رواده لغزو القمر . . .

وما يزال يتابع جولاته الظافرة ، لا يهدأ لحظة ولا يفتر . . .

وآفاق طموحه تمتد وترحب ، بقدر ما يضيف إلى رصيده من جديد الانتصار .

لكنه يزداد كذلك ، على عنفوان طموحه ومجد علمه ، تفكيراً فى مصيره المحتوم وراء رحلته العابرة فى هذه الدنيا .

وإنه ليدرى أن « المنايا رصَد ، من حيث سلك » كما قالت أم السليك ، الشاعر الجاهلى الصعلوك ، فى عصر الناقة !

وإن جهل متى يحين الأجل ، وكيف ، وأين :

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

* * *

ولا سبيل له إلى طمأنينة ، إلا أن يلوذ بالدين ، فيعطيه جواب ما يسأل عنه : فيم كل هذا العناء ، ومقدور على الإنسان أن يكدح إلى مصيره الذى يطوى كل ما كان فى غمضة عين ؟

والجواب الدينى فيما تدبرنا من آيات كتاب الإسلام فى الإنسان ، واضح لا لبس فيه :

يموت المخترعون والرواد والمكتشفون ، من حيث هم أفراد من البشر .

وتبقى ثمار جهودهم الباذلة ، ذخراً للإنسانية فى عمومها المطلق .

ومن قبل مات الرسل جميعاً والأنبياء ، كما يموت كل البشر .

وبقيت رسالاتهم منارات هادية على الطريق .

والدين فى ترسيخه للإيمان بالحياة الآخرة ، يعين الإنسان ، وهو البشر الفانى ، على مجاهدته الباسلة فى سبيل الخير العام والقيم الباقية ، بما يمنحه من الأمل

فى أن كفاحه فى رحلته ليس عبثًا ، وأن حياته الدنيوية المؤقتة ليست إلا ابتلاء لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانة إنسانيته ، فيحميه بذلك من فكرة العدم المدمرة لإرادة الحياة .

* * *

لكن هذه الطمأنينة ، تتعرض لهزات عنيفة من أثر الصدام بين العلم والدين .

والخصومة بينهما قديمة عتيقة ، وكان المفروض أن يحسمها الإسلام ، ختام الأديان ، منذ نزلت آية الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

وفيما بدأت به هذا « المقال فى الإنسان » من نظر فى آية الخلافة فى الأرض ، كان سجود الملائكة لآدم ، تكريمًا لهذا الإنسان الأول ، لما تعلم من أسماء عرضها الله عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

فشهد ذلك بأن العلم مناط تكريم الإنسان ، بل إنه كذلك ، فيما نتدبر من آيات كتابنا ، من جوهر إنسانية الإنسان .

* * *

أقول ، كان المفروض أن الإسلام حسم الخصومة بين الدين والعلم ، بعد أن كبدت الإنسانية فادح الخسائر ، وعوقت خطاها على مراقى تطورها[١] .

ولكن الواقع التاريخى ، يؤكد أن البشرية أعياها أن تصل إلى ما استشرف بها الدين له ، منذ نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان ، فتتابعت قرون والصراع بين رجال اللاهوت ورجال العلم يخضب الساحة الكبرى للعالم البشرى بدماء الضحايا والشهداء . . .

وشهد القرن التاسع عشر توترًا حادًا فى الخصومة بين المذهب المادى وبين الفلسفة

(١) اقرأ فى هذا قصة الاضطهاد الدينى ، للدكتور توفيق الطويل .

المثالية والعقلية الكهنوتية . وقد بلغ التوتر مبلغ الأزمة ، عند ما أعلن «ماركس» تفسيره المادى للتاريخ ، وبيانه الشيوعى سنة ١٨٤٨ ، فهز صرح الكهنوت بجحده الأديان . ثم لم تمض أعوام حتى نشر « دارون » سنة ١٨٥٩ ، كتابه « أصل الأنواع » فقدمت نظريته فى نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعى ، تفسيراً بيولوجياً لما كان من اختصاص التأملات الفلسفية والغيبيات اللاهوتية . وقال قائلون بإمكان تفسير كل شىء فى الكون بالمادة والقوة ، فاتسعت الهوة الفاصلة بينهم وبين رجال الدين إلى مدى جعل احتمال التفاهم أو التقارب عسيراً ، إن لم يكن متعذراً مستحيلا . . .

وازدادت الأزمة حدة وتعقداً ، ولم يبق من رجاء إلا فى أن يتمالك الإنسان رشده واتزانه بعد أن أخذه دوار الإعصار . . .

وهو رجاء بدا أشبه بسراب ، لكن الإنسانية تشبثت به تحت ضغط إدراكها الواثق بأنه إذا كان من المستحيل تصور إمكان تحقيق وجودها بغير العلم ، فمن المستحيل عليها كذلك أن تحيا بغير عقيدة !

* * *

وبزغ عصر الفضاء والأمل لا يزال بعيداً ، بل لعله أمعن موغلا فيما يلوح منطقة سراب :

كثرة من رجال الدين وقفت بمعزل عن ذلك الاقتحام الجرىء لملكوت السماء . ويجتاحها رعب غاضب كلما سمعت عن التجارب المعملية لاكتشاف سر الحياة ، أو جاءها نبأ عن سفينة ماردة تنطلق من قاعدتها على الأرض مصعدة فى عالى الفضاء ، آخذة طريقها إلى القمر أو الزهرة والمريخ . . .

وفى الطرف المقابل المضاد ، تقف كثرة من أبناء العصر مبهورة بذلك الاقتحام الظافر ، وقد ألقت كل سمعها إلى أنفاس رواد الفضاء وغزاة القمر ، تسجلها أجهزة علمية على الأرض من صنع الإنسان ، ومدت بصرها إلى مخابر العلماء حيث البحث الدائب المضنى لكشف أخفى أسرار الكون والحياة .

* * *

فهل بلغ الموقف بنا حافة اليأس التى يصير التعلق فيها بحسم الصدام بين

العلم والدين ، ضرباً من الغفلة الساذجة والوهم العقيم ؟

هل صارت الإنسانية إلى الحد الفاصل الذى يفرض عليها أن ترتد كافرة بالعلم أو كافرة بالدين ؟

كلا . . .

فاليأس فى حساب الحياة ، هزيمة .

والكفر بالعلم أو بالدين ، انتحار . . .

وقد يبدو الأمل سراباً .

لكن الإنسانية تدرك ببصيرتها المرهفة أن السراب هو الذى يحجب الأمل .

وبإرادة الحياة فيها ، تتطلع إلى أن تعبر منطقة السراب إلى أملها المحجوب وراءه، فى اقتحام لا يقل جرأة وبسالة عن اقتحامها آفاق الفضاء وغيابات المجهول .

وإنها لتعى ، من واقع تجاربها على مسار تاريخها الطويل ، أن العداء ليس بين الدين والعلم ، وإنما هو فى الحقيقة عداء بين رجال من الفريقين ، ملأ الأفق بغبار المعركة فتاهت الرؤية وسط النقع المثار . . .

ذلك أن جوهر الرسالات الدينية ، لا يمكن أن يتصادم مع حقائق العلم ، وإنما ينشأ التصادم من سوء فهم لجوهر الدين أو لطبيعة العلم، ومن وهم خاطئ ربط الإلحاد بالأمجاد العلمية لروسيا الشيوعية ، مع أن البيان الشيوعى لكارل ماركس (المانيفستو) ينتمى بشهادة الواقع التاريخى إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وليس فيه أدنى إشارة طامحة إلى مجد علمى أو تطلع إلى ما وراء الفضاء . . .

والماركسية مذهب اقتصادى واجتماعى ، قام على نظرية التفسير المادى للتاريخ ، واتجه إلى تعميق الصراع الطبقى لسحق الاستغلال اللئيم لجهود العمال الكادحين ، وتدمير معاقل هذا الاستغلال ، سواء أكانت لرجال الكهنوت أم لطواغيت الأباطرة والقياصرة ، وجبابرة الإقطاع والرأسمالية . . .

ولم يكن المذهب بحال ما ، دعوة إلى عصر الذرة أو نضالا فى سبيل شغل العلماء لمراكز السلطة ، بعد انتزاعها من براثن الطواغيت ومخدرى الشعوب ومصاصى دماء العمال .

ولم يكن أقطاب المذهب ، من ماركس وإنجلز ولينين إلى ماوتسى تونج ، من

المشتغلين بالعلم التجريبي ، فى البيولوجيا والرياضيات والكهرباء والفلك والذرة ، الذين حقق بهم العصر انتصاره الرائع . . .

وإنما هم جميعًا فلاسفة مفكرون وقادة ثوريون لعصر يدعو إلى سحق الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى سادت عصور الحكم الاستبدادى والرق الجماعى والإقطاع الباغى والرأسمالية الضارية . وإذا كانت روسيا الملحدة قد حققت — بعد قرن من بيان ماركس — سبقًا مجيداً باهراً فى المجال العلمى ، فإن دولة أمريكية مسيحية محدثة تنافسها فى هذا المجال ، ولم يحل تدينها دون تحقيق جولات لها ظافرة فى حلبة السباق .

واستغلال الدين ضد طبيعته لعرقلة التقدم ، كاستغلال العلم ضد طبيعته لتدمير الحضارة وإهلاك البشر . وليس الدين مسئولا عن التأويلات الفاسدة والأوهام التى تلابس الفكر الدينى من العقلية الكهنوتية ، كما أن العلم ليس مسئولا عن نكبة هيروشيما ومعارك فيتنام والجزائر وكوبا وفلسطين ، التى تؤرق ضمير العصر .

وربط الإلحاد بالتقدم العلمى ، وهم لا يقل سذاجة وغفلة عن ربط الدين بالتخلف الحضارى والجمود العقلى والمخدرات المعنوية التى سلطتها الكهنوتية على وجدان الجماعات فى عصور المحنة بالرق والاستبداد والتخلف .

وما من صدام حقيقى يمكن أن يقوم بين جوهر الدين فى دعوته إلى الحق والخير ، وبين جوهر العلم فى سعيه الدائب لإسعاد البشر .

وقد قال الدين كلمته فى ختام رسالاته ، فبرر بالعلم سجود الملائكة لآدم ، وجعل العلم قرين الإيمان ، وقصر خشية الله على العلماء لأنهم بما يتدبرون من عجيب آيات الحياة وسنن الكون ، يؤمنون بأن شيئًا من هذا لا يمكن أن يكون عبثًا باطلا أو تلقائية عشواء :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلقِ السمواتِ والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . . . »

وحين كان الغرب الأوربى يخبط فى ظلمات عصوره الوسطى ، ويمتحن

باضطهاد الكنيسة للعلماء وإلحاحها فى مطاردتهم بالمحاكمات والطرد والحرمان ، كان علماء الإسلام فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، ينطلقون فى طمأنينة واثقة من تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل ، فينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، ويمارسون التجارب العملية فى المجال العلمى ، فقدموا جديداً أصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرف لها أحد قبلهم ، فكانوا هم الذين أصلوا المنهج التجريبى الاستقرائى ، وأعطوا الإنسانية أوليات الكتب العلمية فى الطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والطبيعة والفلك والملاحة والجغرافيا ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكى والخبرة الجغرافية والملاحية ، وبفضلهم تم نقل العلوم الطبيعية إلى مجال البحث التجريبى الذى لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلى النظرى .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، نقطة الانطلاق إلى عصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربى ، بدأت خطواته الأولى من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام أساساً على ما انتقل إلى الغرب من تراث الحضارة الإسلامية ، المتحررة من عقدة الخصومة بين الدين والعلم .

وكذلك قال العلم كلمته ، أنقلها عن أستاذنا العالم الكبير « الدكتور محمد كامل حسين » (١) :

« لا محل للخلاف بين العلم والدين أبداً . . .

« ولا محل مطلقاً للحديث فى هذا الخلاف ، ويجب أن يُمحى مما يتكلم عنه الناس فى هذا العصر » .

* * *

ومن حق الإنسانية وهى تستقبل عصر الفضاء وتستعد للهبوط على القمر ، أن تتساءل عما يقدم العصر لسلامها النفسى بعد أن أرهقتها عقدة الانفصام بين المادية والمعنوية ، وأنهكها الصراع العقيم بين العلم والدين .

من حقها أن تتطلع إلى عصر جديد ، ينسخ ذلك الليل الطويل الذى لفّها

---

(١) فى محاضرته عن « الإيمان بالعلم » بجامعة عين شمس ، فبراير ١٩٦٣ ، وقد طبعتها مطبعة الجامعة .

فى دوامة الإعصار ، وترك فى كيانها صدعًا غائراً لطول ما أنحت عليه المعاول وأوغلت فيه السهام ، بحيث لم تعد المعركة بين فريق من أبنائها وفريق ، وإنما انتقلت إلى صميم الإنسان فرداً ، فإذا هو مضغوط بين المادية بجبروتها العاتى ، وبين معنوياته التى تحتكم فيه بسلطانها القاهر ، وتتحدى كل التفسيرات التى يقدمها الماديون ، وتعصى على كل الحلول التى يصلون إليها . . .

وإن الإنسانية لترفض أن يُظلها عصر يدعى جديداً ، وفيها هذا الصدع الغائر يمزق أبناءها شيعًا وأحزابًا بعضهم لبعض عدو ، ويمزق كيان الإنسان بالحيرة المضنية والشك المدمر ، إذ تتجاذبه التيارات المضادة ، فبعضه لبعض عدو !

والعصر الذى يقدم لها عباقرة العلماء ومهرة الأطباء ونوابغ المفكرين ، ويمنيها بالتعايش السلمى والعدالة الاجتماعية ، ويضرب لها موعداً قريبًا مع القمر أو المريخ . . .

لابد أن يقدم لها مع ذلك كله ، إن لم يكن قبل ذلك كله ، طب النفس والروح ، ويعدها بالبرء من عُقَد الانفصام فى الشخصية مادية ومعنوية ، ويمنحها الاتزان بين جاذبية الأرض التى تمتد فيها جذور الإنسان موغلة فى أعماق الزمان ، وبين تلك الآفاق العليا لمناطق انعدام الجاذبية !

وإنسان العصر قد يبهره الاقتحام الظافر لملكوت السماء ، وتخايله رؤيا التحرر من جاذبية الأرض ، فيحسب أن المعركة التى طالت ، سوف يحسمها الغد بما يحمل من جديد انتصار للعلم ، ومن ثم يتصور أن الإيمان بالعلم هو البديل العصرى للإيمان بالدين . . .

لكن الإنسانية شهدت فى ماضيها القريب ، تجربة إحلال « بديل » آخر للدين ، فلم تزدها إلا تصدعًا وتمزقًا .

تلك كانت تجربة الشيوعية فى مقاومتها لما سمته « أفيون الشعوب » ومحاولتها أن تحرر الإنسان من سلطان العقيدة ، ليخضع تمامًا لسيطرة المذهب .

ومضى على تلك المحاولة قرن وبعض قرن ، فما استطاعت أن تعطى عن العقيدة بديلا .

واكتشف العصر ، إلى جانب ما اكتشف من أسرار الكون ، أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى فراغ من العقيدة ، وأن أى جديد من النظم والمذاهب مهدد بالخطر ، إذا ظل يتجاهل هذه الحقيقة الإنسانية التى تقرر أن الإنسان ليس مادة فحسب ! وهو قد يعيش فى ظل أحدث النظام وأفضل الأوضاع ، وعالمه النفسى مشحون بعواطف ونوازع لا تستجيب لأى تفسير مادى ، ووجوده محكوم بأسرار خفية معقدة لا تحلها أدق المعادلات الرياضية .

وقرن كامل ، ليس وقتاً قصيراً فى امتحان وتجربة . . .

والقياس الزمنى للقرن العشرين ، لا بد أن تدخل فيه الأبعاد المترامية لعصرنا فى جرأة اقتحامه وسرعة تقدمه وامتداد آفاقه . . .

* * *

وعلى الأفق الرحب لعالمنا الجديد ، بدأت تلوح بوادر الوعى المدرك لعقم أى محاولة لإحلال بديل عن العقيدة الدينية .

إيذاناً بعصر جديد ، يمنح الإنسان سلامه النفسى ويرحمه من ضغطة الانسحاق بين العقيدة والمذهب .

والراصد لهذه البوادر ، لا يفوته أن يتتبع ظهورها منذ عام ١٩٥٨ ، حين أوفد « الفاتيكان » بعثة سلام من كبار رجال الدين ، فى زيارة رسمية للاتحاد السوفييتى ، حيث اجتمعوا بوزير الخارجية « أندريه جروميكو » وتم الاتفاق على العمل المشترك من أجل السلام .

وفى شهر أبريل من عام ١٩٦٦ ، استقبل « البابا بول السادس » جروميكو ، أثناء زيارته لإيطاليا .

وحملت أنباء شهر سبتمبر من العام نفسه ، خبراً عن مفاوضات تجرى فى براج ، بين « الكاردينال فرانز كوينج » ممثلا للبابا ، وبين حكومة تشيكوسلوفاكيا لإعادة العلاقات الدبلوماسية بعد قطيعة عشرين عاما . وهذه المفاوضات يحدوها أمل كبير فى النجاح ، بعد أن نجحت جهود سابقة مع المجر ويوغوسلافيا ، فى قبول حق الكنيسة فى التوجيه الدينى لرعاياها الكاثوليك فى الدول الشيوعية ، دون أن يتعارض ذلك مع السلطة السياسية .

ومثل هذه البوادر لا تعطى دلالتها الحقة ، على تطور الموقف بين الدين والشيوعية ، إلا إذا ربطناها بوصية الزعيم الراحل للحزب الشيوعى الإيطالى « بالميرو توليانى » وقد ألح فيها على ضرورة تقدير الحزب للواقع الإيطالى الذى يغلب عليه الطابع الدينى . ونصح باتقاء تعارض الحزب مع الدين ، لكى يستوعب أكبر عدد من الإيطاليين !

و « بالميرو » يتكلم عن تجربة وملابسة للواقع .

ومن قبله تكلم « برنارد شو» عن تأمل فكرى حينما قدم قصته « البربرية تبحث عن الله » فعجب لسذاجة المحاولة للتخلص من الدين ، وصرح بأنه لم يشعر قط بنفور أو ندم على تربيته الدينية « لكنا نجحد هذه النعمة فنخلط مثل الدين العليا وعطاءه السخى ، بأوهام مفسريه وسخافات دعاته » . واشتهرت عبارته المأثورة :

« إن دراسة تاريخ الأديان تصف لنا تطور نظرية الوجود من العبادة الوحشية الخشنة الجافية إلى المعنوية المهذبة المرهقة . وقد كانت كل مرحلة من مراحل التطور الدينى تمضى بالإنسان خطوة إلى تصور الطبيعة فى صورة أنبل وأعمق. وكان حقًّا على البشرية كلما وصلت إلى نبع أنقى، أن تنظف أوعيتها تمامًا قبل ملئها بالماء الصافى . لكنا نفسدها جميعًا بكسلنا المعهود فنصب ماء النبع الجديد على ما فى دلونا القذر من ماء عكر ، ثم نظل نكرر الحماقة فنضيف إلى الدلو أوهام الشراح وسخافات المبشرين ، مما يجعل عقولنا وعاء لخليط قذر يجعلنا عرضة لسخرية الملحدين الذين لا يشغلون أنفسهم ، وإن كانوا سذجًا ، بمثل تلك التعقيدات المربكة والأوهام السخيفة » .

ومضى « شو » قبل أن يصطدم زعماء الشيوعية بالواقع الصارم ، ويواجهوا أزمة الفراغ العقيدى الذى حاولوا عبثًا أن يملئوه بتعاليم مذهب اقتصادى اجتماعى ، وأفضى بهم اليأس إلى أن يجعلوا من بعض قادتهم آلهة معبودة على الأرض ، لعلها تلبى ما فى وجدان الجماهير من نزوع فطرى راسخ ، إلى التعبد !

ومضى « بالميرو » تاركًا وصيته وثيقة تاريخية تصك سمع الملاحدة وتحذرهم من خطر اصطدام المذهب وبالعقيدة الدينية !

بحيث لا أستبعد أن يكون التطور المنتظر للشيوعية ، هو التراجع عن موقفها ضد الدين .

ولتمض فى عدائها لمن يستغلون الدين ضد طبيعته لعرقلة التقدم ، ويزعمون لأنفسهم سلطة كهنوتية يمارسون بها هذا الاستغلال ، أو ينتحلون حقًا إلهيا مزعومًا يتسلطون به على وجدان الجماهير .

* * *

ومن رصيد هذه التجربة الواقعية ، فى فشل إحلال المذهب بديلا للعقيدة الدينية ، ترنو الإنسانية إلى عصرها الجديد بمزيد من الوعى المرهف ، والأمل الطامح فى أن يعفيها العصر من مكابدة الصدام العقيم بين الدين والعلم . . .

ذلك يوم يدرك رجال الدين والعلم ألا تعارض إطلاقًا بين الإيمان بالدين والإيمان بالعلم ، فليس أحدهما بالذى يناقض الآخر أو يجور عليه ، بل يمضيان معًا على الطريق لخير الإنسانية فى عمومها المطلق ، ويحدوان خطوات البشر الفانى على معبر الدنيا ، كى يحقق كمال إنسانيته فيترك للحياة من بعده ما ينفع الناس . . .

« إن فى ذلك لَذِكرَى لمن كان له
قلبٌ أو ألْقَى السمعَ وهو شهيد »
صدق الله العظيم

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٩٣/٨٤٩١
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4227 - 6

١/٩٠/١١١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

